



صبيحة شبر

راطلون رغماً
عن أنوفهم

رواية



ألف ياس
Alf Yaseen

راحلون رغباً عن أنوفهم

المؤلف: صبيحة شُبّر
الكتاب: راحلون رغماً عن أنوفهم (رواية)

صدرت النسخة الورقية عام 2018

صدرت النسخة الرقمية: كانون الثاني/يناير 2025

- الناشر: «ألف ياء AlfYaa»
- الموقع الإلكتروني: www.alfyaa.net

- جميع حقوق توزيع النسخة الرقمية بكل التنسيقات (PDF، ePub و/أو أي تنسيق رقمي آخر محفوظة لـ «ألف ياء AlfYaa»
- جميع حقوق الفكرية محفوظة للمؤلف
- يعبر محتوى الكتاب عن آراء مؤلفه.
- «ألف ياء AlfYaa» ناشرة للكتاب فقط وهي غير مسؤولة عن محتوى الكتاب



- تصميم الغلاف والإخراج: طالب الداود

صبيحة شُبْر

راحلون رغماً عن أنوفهم

رواية

الفصل الأول

يطول غيابي عن الأصدقاء في صوفيا. تهاتفني الحبيبة شهد طالبة مني أن أعود إلى الأحباب، فقد طال بعادي عنهم. تخبرني أنها مشتاقة لي، محتاجة لوجودي بينهم، وتعلمني أن أمها بحاجة لي في هذا الوقت العصيب، وأنه حرام علي أن أتركها بلا سبب تعاني الغربة. وتذكرني شهد أن أمها قد قدمت لي الكثير، وأنا قابلت معروفها بالهجران. لأول مرة في حياتي تحدثني شهد لائحة إياي بشأن أمها. لم أخبر الحبيبة أن ما أعانيه من ضعف ومرض مبعثه الشعور بالإثم. نعم، أنا آثم. رجل عض اليد الحانية التي أكرمته وحنّت على ضعفه وقدمت له القلب العطوف والموقف الحاني.

أراجع طبيبياً يخبرني أنني مصاب بعجز، مبعثه الشعور بالإثم، وأن هذا المرض يصيب بعض الرجال في وقت معين. أمرني الطبيب بالراحة من الجنس اللطيف، وألا أرهق بدني

فوق ما هو متعب. أصمم على العودة إلى الأحبة الذين يرغبون بوجودي بينهم. ولكن أين أذهب، وجرمي كبير، وذنبي لا يغتفر، وجريرتي تكلفني شعوراً بالهوان قد يستمر طويلاً.

أصمم على الاستجابة لنداء الأحبة، فلا أحد لي غيرهم. فقد منحوني عواطفهم النقية ينبوعاً لا ينضب عطاؤه ولا يعرف التوقف. أيمم وجهي نحو صوفيا الرائعة الجمال، وقد عزمت على نسيان تسرعي الذي تسبب في تعاستي. أزور الأمكنة التي طالما استمتعت بجمالها البديع، وأذهب لوداع الأصدقاء الذين قدموا لي قلوبهم على طبق من ذهب. وأتوصل إلى حقيقة ناصعة أن الحياة لا تستجيب للمتباكين على رحيل بعض النعم والناظرين إلى الدنيا نظرة تشاؤمية عدمية. وأقرر أنه بإمكانني أن أتلقى الحب الصافي وأن أتمتع بالصدقات النقية والتي تكون دائماً بلا مقابل مالي أو مصالح ضيقة. إنما من يحبني بصدق يتطلع إلى أن أبادله شعوره الجميل.

لا داعي لأن أترك شعوري بالإثم ينمو في داخلي ويتضخم. إنما جميل أن يكون لي ضمير صاح يحاسبني إن أكرمت بحق الأحبة.

.... شهد الحبيبة لا يمكن أن تحيا بدون الأب الذي تجد في أحضانه الحب والرعاية.. هي وأمها تحتاجان إلى وجودي بينهما، وهذا يكفيني من كنوز الدنيا..... أدرك أن سامية سوف تغفر جرمي بحقها، وأن قلبها الكبير لن ينسى الحب الذي جعل حياتها زاخرة بالجمال.

أصبحت تتعبين بسرعة. ما إن تقومي بعمل بسيط حتى يصيبك الإرهاق. نصحتك الطبيبة ألا تكلفي نفسك فوق طاقتها.

وحيث كنت في الشهر الثاني من الحمل، نزلت، لأنك أرهقت بدني في الأعمال المنزلية التي لا تجدني أحداً يقوم بها سواك. نصير رغم أنه يردد الأقوال التي تدل على التقدمية ومناصرة المرأة، وتأييد النساء في المطالبة بحقوقهن في المساواة وتكافؤ الفرص، إلا أنه لا يقوم بشيء لمساعدتك. ما إن يصل إلى المنزل حتى يفتح التلفاز ويجلس واضعاً ساقاً على ساق، متفرجاً على برامج التلفاز. يسألك:

- ماذا أعددت لنا لطعام الغداء؟

- كباب مقلي وسلطة.

- كل يوم نأكل الطعام نفسه، ألا تملين؟

يتناسى العريس أنكما تزوجتما منذ فترة قصيرة، ويطالبك أن تنهكي بالأشغال المنزلية وأن تحافظي على أعصابك من مضايقات العمل. وهم يطالبونك أن تنتمي إلى حزبهم، وإلا فالويل والثبور، وعظائم الأمور تنتظر عنادك. ونصيحة الطبيبة ترن في أذنيك:

- اهتمي بنفسك، لا ترهقيها. الأعمال المنزلية يمكن تأجيلها، أما جنينك إن أصابه التعب وودعك، فلا أمل لك في حمل جديد.

يمضك وضعك. لا يدرك زوجك أنك تعبte وقد تفقدين حملك إن نزلت مرة أخرى. فالجنين لا يتحمل أن يفقد دماء جديدة. يكفي ما فقدت في المرة السابقة.

تخرجان لزيارة عائلة نصير، والازدحام شديد. تقترحين:

- لنوقف سيارة أجرة.

- هل عندك أجرتها؟ أنا نفدت نقودي.

- ولكننا نشترك في الإيجار والمصروفات!
- ليكن، ليس عندي أجرة للتاكسي. أنت شابة ويمكن أن تسيري على قدميك! ألا تحبين الرياضة؟
- تسيرين وأنت تفوضين أمرك إلى خالقك. أي تحكم هذا وأنتم لم تكملا العام بعد؟ تشعرين بالتعب الشديد، وينقص في جسدك الكالسيوم والحديد. تجدين أن الفاقة تلازمك رغم أنك موظفة في دولة غنية. لقد أعطيت راتبك للزوج، وهو يقوم بما تحتاجين وما يحتاج المنزل والجنين!
- هل نفذ راتبتي؟
- نعم، بقيت دنائير معدودة، أعطيتها لأختي. تريد أن تسافر إلى فرنسا.
- تصمتين، ماذا يمكنك أن تقولي؟ تتوهمين أنه يحبك كما تحبينه.
- في الشهر السابع من الحمل يعود نزيك مرة ثانية. إنك لم تستمعي لنصائح الطبيبة. تمنحك أختك بعض النقود وتدخلك إلى المستشفى للعناية بك ورعاية الجنين.
- تزورك رئيسك في العمل وأنت في المستشفى:
- بقيت وحدك لم توقعي على ما يريدون!
- ماذا تعنين؟
- يجب أن تنتمي لحزبهم! كلنا وقعنا! وبقيت أنت! كلنا غير مقتنعين، ولكن يجب أن نحرص على حياتنا.
- سأفكر في الأمر، وأخبركم!
- لا تفكري، ليس لديك وقت للتفكير. افعلي ما قمنا به

جميعنا.

- لكني لا أحب السياسة!

- جميعنا لا نحبها! لكننا انتمينا إليهم كما أمروا.

- وإن كنا غير مقتنعين!

- وإن كنا! أنا أحبك ولا أريد أن تسوء حياتك، لهذا أنصحك.
وقعي وارتاحي.

- حسن.. هل يمكن أن أنتمي إليهم بعد الولادة؟

- نعم.. يمكن ذلك. سوف أخبرهم، ليكفوا شرهم عنك!

اتفق والداي أن يقيما احتفالاً بعيد ميلادي. غداً أبلغ الخامسة من عمري. ولأنني الصغير بين إخوتي وأخواتي، فقد رحب جميع أفراد الأسرة بأن يشاركوا في حفلة عيد الميلاد. دعي للحفلة بعض الأصدقاء المقربون وبعض الأقارب. هيأت أسرتي ما يلزم لهذا العيد. وفي الساعة الخامسة من مساء الغد سوف نشهد الاحتفال ببلوغي السنة الخامسة من العمر. جهز أبوي البالونات المناسبة ودعيا الأطفال ممن هم في مثل سني. واشترت أُمي الأصناف التي أحبها من الحلويات. وجهزت شقيقتي بشرى أنواع الكيكات. كما رغبت أختي ماهرة أن تكون الكيكة التي سوف تقوم بإعدادها مناسبة للاحتفال بعيد الميلاد. اقترح أخي أحمد أن يقوم هو بتوفير العصائر التي ترغب بها عائلتي. أخي سمير قال إنه مستعد لتهيئة أنواع من الشوكولاتة التي يعرف أنها مرغوبة لدى الأطفال. دعت أُمي جارتنا سامية وزوجها، فهما جاران وصديقان لأسرتنا يقاسماننا الأفراح والأحزان كما يقول أبي.. يمر اليوم وأنا فرح

مسرور. أخرج الملابس التي اشتريت لي لهذا العيد من خزانة الملابس، وأنا أنظر إليها بحبة. بعد ساعات ستكون كل هذه الأشياء ملكاً لي. ذهب أبي بي إلى الحلاق ليقص شعري الطويل:

- سوف يقص الحلاق المختص شعرك بهذه المناسبة، وفي الأيام الأخرى أقوم أنا بالمهمة!

في الليل أحلم بأني سوف أكون في منتهى السعادة، بملابسي الجديدة، والأحباب كلهم يحيطون بي. فقد كبرت وبلغت الخامسة من العمر، ولم أعد طفلاً لا يفقه مما يقول الكبار شيئاً. في الصباح أصحو على نداء أمي:

- ليث ولدي، استيقظ.. حان وقت الفطور. كلنا ننتظرك، اليوم عيدك!

أستيقظ، أجد الوالدين والأخوين والأختين قد استيقظوا قبلي وجلسوا حول مائدة الطعام. هيات أمي بمساعدة أختي أكواب الحليب والشاي والخبز والجبن ووضعوا طبق الفاكهة على المائدة. أتناولها بعد الفطور أو قبله كما يحلو لنا. فالتفاح مفيد أكله قبل الفطور ليقى من الأمراض كما تقول أمي.

ونحن على المائدة يطرق الباب بعنف. تفتح شقيقتي، نجد الجارة سامية تصرخ:

- ماذا جرى؟ ما بك؟ كلامك ليس مفهوماً! اجلسي هنا وارتاحي!

تجلس سامية قليلاً، تتنفس بعمق، ثم تقول:

- في فجر هذا اليوم جاءوا وأخذوا زوجي نصير.

- لماذا أخذوه؟

- قالوا يريدون أن يعرفوا بعض الأمور الغامضة منه،
وسوف يعود بعد نصف ساعة!

- في أي ساعة أخذه؟

- في الرابعة صباحاً.

- ولم يعد بعد، يعني أن غيبته ستطول!

- سوف أنتظر.

- نحن معك يا ابنتي.

- أنتم أهلي، فإن والدي في الكويت.

- نعرف يا ابنتي أن أباك هرب من بطشهم إلى الكويت
مصطحباً أمك.

* * *

التعب يمضك، لا تستطيعين النوم. تتشنج ساقاك، ترفعينهما
إلى الأعلى، تحاولين أن تدليكهما. في بعض المرات التي
تستيقظين فزعة من النوم بسبب تشنج ساقيك، كان نصير
يحاول أن يجلب لك الراحة. يقوم بتدليك الساقين حتى تشعري
بالراحة، وتعودين إلى النوم. يلزمك التعب كل لياليك:

- هل تشربين الحليب كل يوم؟

- نعم، أغلب الأيام أقوم بتناول كأس من الحليب.

- لماذا لا تتناولين الحليب كل يوم؟

- لأنني أنسى أحياناً.

- لا تنسي، جسمك بحاجة إلى الكالسيوم، وجنينك يحتاج
الكالسيوم أيضاً. اشربي كل يوم كأسين من الحليب.

تصمتين، كيف يمكنك أن تخبري الطبيب أنك لا تستطيعين أن تشتري الحليب بكثرة، فإنك شبه معدمة. راتبك يوزع بين أسرتك الصغيرة المتكونة منك ومن زوجك، وبين أسرة زوجك الكبيرة وأخواته ووالديه. هذه الليلة استيقظت عددا من المرات بسبب الألم الذي يسببه تشنج الساقين. تحاولين أن تصرخي، ليسمع الزوج النائم صراخك، فيهب لمعاونتك. ولكن هذه الليلة، ينام زوجك عميقاً:

- تعبت هذا المساء، أرهقوني هذا النهار بإلحاحهم أن أنضم إليهم.

- وأنا أعاني الوضع نفسه!

وأنت في الليل تحاولين أن تريحى الساقين المتشنجتين، وزوجك في نوم عميق. يدق باب المنزل بعنف:

- من يمكن أن يدق علينا الباب في هذه الساعة؟

- إننا قريبون من الفجر!

- هل يكون طارقو الباب من زوار الفجر؟ افتحي الباب وانظري من الطارق؟

لا تستطيعين القيام، التشنج ما زال يؤلمك ويغثال راحتك. يقوم نصير لينظر من القادم:

- لماذا تأخرتم في فتح الباب؟

- كنا نائمين!

- طرقاتنا المتوالية لم تنجح في إيقاظكم، كدنا أن نكسر الباب! سمعنا أنكم تخبئون الممنوعات في منزلكم.

- أي ممنوعات؟

- أنتم ديدان الكتب... تحتفظون بالمنشورات الصفراء.
- ليس عندنا نشرات صفراء.
- يفتشون المنزل وينظرون إلى قائمة الكتب في المكتبة.
- يطرحون بعضها على السرير ويرمون البقية على الأرض،
ويأخذون معهم أوراقكم:
- تعال معنا، نطرح عليك بعض الأسئلة!

* * *

- سامية حزينة، لكنها لا تبكي. يقول لها أبي:
- ابكي يا ابنتي، الدموع تريح النفس وتجلو هموم القلب.
- نشفت دموعي أيها العم، منذ فترة وهم يلاحقون نصير.
- حين يتأخر في العودة إلى المنزل لسبب من الأسباب تتضخم
مخاوفي. أعرف أنهم يلاحقونه منذ زمن ليس بالقصير.
- يلاحقوننا كلنا، لا يميزون بين الشيخ والشاب والطفل. كلنا
جناة بنظرهم.
- لا تبتئسي يا ابنتي، كلنا في الهم عراق.
- منذ أن كنا مخطوبين وفي فترة ما قبل الخطوبة أدركت
أنهم لا يدعون نصيراً وشأنه!
- يزدادون شراسة بمرور الأيام، يخافون من الشعب يا
ابنتي العزيزة. ابقِي بيننا عزيزتي، لا تكوني وحدك. قد
يعودون إليك وأنت في مثل هذا الوضع من الحمل.
- سوف أطل على بيتي بين فترة وأخرى، عله يتخلص من
الأزمة التي تحيط بنا جميعاً.

- قومي بما يحتاج إليه منزلك من أعمال وتعالى إلى هنا وشاركينا طعام الغداء والعشاء يا ابنتي.

- أنتم أهلي وناسي، وليس لي من أحد سواكم.

- أحضري الاحتفال.

- نعم.. سأكون بينكم. جهزنا أنا ونصير هدية لليث الحبيب.

- افطري معنا، نحن واثقون أنك لم تذوقي الطعام منذ ذهاب

نصير معهم!

تشرب سامية كأساً من الحليب قدمته لها أمي، وحين تنتهي من شربه تسرع إلى منزلها.. توقفها أمي:

- أنت حبلى، وكأس الحليب لا يكفيك مع الجنين. كلي هذه التفاحة وشطيرة الجبن.

- لا أستطيع!

- اعتبريها دواء!

تأكل سامية نصف التفاحة وجزءاً من الشطيرة، وتغادر إلى منزلها:

- كوني معنا وقت الغداء.

- إن شاء الله.

تنهمر دموع أمي وأخواتي من الفاجعة التي حلت بجارتهم وزوجها... ويقرران أن يقوموا لتهيئة ما يلزم للاحتفال الساعة الخامسة مساءً.

تقومين بما يطلب المنزل من مهام. فكرك مشغول، ونفسك

قلقة. تنظيف المنزل، فقد ثار الغبار ضحى هذا اليوم، وجعل أثاث المنزل في حالة يرثى لها. تمسحين الكراسي والمكتبة، وتزيلين ما علق من غبار. وتمسحين بالماء والصابون أرضية الصالة وغرفة النوم والمطبخ، وتغسلين الحمام بالسوائل المطهرة. بيتكم صغير متواضع، استأجرتموه قبل زواجكما بأسبوع واحد. قمت أنت بإعداده كي يكون مكاناً صالحاً للإقامة والزواج بعد قصة حب. استيقظت قبل شهر العسل القصير لتدركي أن العسل أضغاث أحلام. ومرت الأيام وحياتك علقم. تُسألين النفس: متى تذوقي العسل؟ وقد أخذتما إجازة من العمل لتسافرا إلى بلد أوروبي. ولكن قبل اليوم المحدد للسفر للزواج هناك، جاءك نصير:

- الشقة التي استأجرناها أصبحت جميلة، صالحة كي نتزوج فيها!

- والسفر؟ وقضاء شهر من العسل في بلد أوروبي؟

- نقودي نفذت.

- أنا اشتريت غرفة النوم وكراسي الصالة.

- وأنا شاركت في شراء آلة الطبخ!

- طباح بدون فرن!

- في الغد نتمكن من شراء الفرن!

دعاكما أبوك كي تقضيا شهراً من العسل في الكويت، ولكن نصير لم يررض:

- النقود التي سوف يصرفها أبوك علينا في شهر عسل ليست ضرورية... من الأجدر أن يعطيها لنا كي نستفيد منها.

- أبي تحمل نفقات حفل الخطبة وعقد القران، وعلينا أن

نتحمل البقية.

- تفكرين كبرجوازية صغيرة!

تتذكرين ما مر بك في الأيام الأولى لزواجك، وتنسين ما سببته لك من إحباط. وحتى العيش البسيط والنكد الذي يهل عليك بين يوم وآخر تناسيته. تفكرين برفيق العمر: ماذا حل به؟ أخبروك أنه سوف توجه له بعض الأسئلة، ثم يعود إلى بيته إن تعاون معهم في الإجابة. وأنت لست واثقة من وعودهم. كثيرون من المعارف والأصدقاء طالت غيبتهم، ولم يعرف مصيرهم. فهل يكون نصير ضمن أولئك الأصدقاء الذين جاءهم زوار الفجر، ومضوا بصحبته دون عودة؟ تتضرعين لله ألا يسببوا له الأذى. أنت وحدك، وجميع أهلك اغتيل بعضهم، وهاجر البعض الآخر. حبيبك الغالي أبوك هاجر من العراق إلى بلد آمن، وتركك وحيدة. عندك بعض الأصدقاء، تخافين أن تخبريه عن مخاوفك. الأسرة الوحيدة التي تتحدثين مع أفرادها باطمئنان هم جيرانك الأعزاء، وقد دعوك هذا المساء لاحتفال عيد ميلاد ابنهم الصغير. سوف تلبيين الدعوة، عسى شعورك بالوحدة يزول عنك.

في الغد لعل غيوم الأمس تنقشع، ويهل النور. ولكن من أين يأتي النور؟ ونحن نعيش في ظلام دامس. كيف نتمتع بالنور يشع على حياتنا التي تخلو من الأحباب؟ هل يمكن لمن بقي وحيداً أن يجد جمالاً في هذا الألم؟

جلس أفراد أسرتي حول المائدة وقد وضعت عليها أنواع الكيكات والحلويات، وأشعلت الشموع، ونفخت البالونات الملونة، مما أكسب المنزل بهجة وفرحاً. وهم يرددون لي:

- سنة حلوة يا جميل.
- أطفئي الشموع يا ليث.
- ونحن في الظلام لأن أمي أطفأت الكهرباء، طرقت الباب بعنف:
- من بالباب؟
- افتحوا!
- قبل أن يتمكن أحدها من فتح الباب، يكسره القادمون. يدخلون، نرى عدداً من الرجال المسلحين أمامنا:
- ماذا تفعلون؟
- نحتفل بعيد ميلاد ولدنا الصغير.
- لماذا؟
- لأنه أكمل السنة الخامسة!
- وهل من عادتنا أن نحتفل بعيد ميلاد الصغار؟
- مناسبة سعيدة تستحق الاحتفال!
- هل حصلت على ترخيص بهذه الحفلة؟
- لم ندع أحداً غريباً، إنهم من أقربائنا فقط!
- من قال هذا؟ أنتم تزعمون بما ليس حقيقة. عندكم اجتماع ممنوع، ألا تعرفون أن اجتماع أكثر من ثلاثة أشخاص ممنوع هنا؟
- لكننا أسرة واحدة!
- وتقيمون احتفالاً!
- وما الضير في هذا؟

- اخرس، وإلا أخرستك بالقوة!

يسكت أبي، فيندفع الرجل المسلح قائلاً:

- أنكم وحوش لا تعرفون الرحمة. تحتفلون وأنتم تعلمون أن اجتماع أكثر من ثلاثة أشخاص ممنوع. من قال إنكم لستم في اجتماع حزبي؟

..... -

- أجبني، هل أصابك الخرّس أيها الخرف؟

يصوب الرجل مسدسه نحو أبي وأمي ويرديهما قتيلين. ويقود أحد الرجال المسلحين شقيقي الاثنين، ويضع السلاح الثالث القيد في يدي شقيقتي الاثنين. يخرجون من باب المنزل بعد أن يلتفت إلي كبيرهم:

- أنت الصغير ستبقى شاهداً أننا نحب الأطفال!

يخلو البيت من جميع من كنت أجد سعادتي بقربهم. تقول سامية:

- حبيبي سوف تعيش معي، وستكون ابناً لنا أنا ونصير.

* * *

ما زال القلق يفترسك، والحيرة تستبد بك. لا تعرفين أين نصير؟ وماذا حل به؟ ومتى يعود إلى المنزل؟ وهل تظنين أنهم صادقون في وعودهم؟ وقد مر كثير من الناس بقصص مشابهة لقصتك. وهل يشي نصير بالأصدقاء ويكشف عن أسرارهم وعن أحلامهم في تغيير الواقع المظلم إلى حياة أجمل؟ تشفقين على نصير، وعلى المصير الذي سوف ينتظره. لقد تبخر الحب الذي كنت تشعرين به، وكنت تأملين أن يظل مرافقاً

لحياتك. وتدرकिन أن الأيام إن جف الحب فيها، أضحت صحراء يابسة، لا خضرة فيها تسر النفس وتمتع القلب. حملت له الحب الكبير، وفضلته على رجال آخرين تعرفينهم أكثر من معرفتك لنصير. غاب الحب عن حياتكما في بدايتها. تتذكرين تلك الجلسة في أول شهر العسل، حين دعاكما صديقكما المشترك عماد الحلي في منزلكم، واشترى كل ما يلزم كي تكون الحفلة بمناسبة العرس جميلة. وشرب الصديقان، وبالغ نصير في شرب أنواع مختلفة من المشروبات الكحولية: النبيذ والعرق والويسكي. سأل عماد الحلي سؤالاً استفزازياً:

- هل تتذكر زميلتنا في الجامعة ابتسام عزيز؟
- نعم، أتذكرها جيداً. بعض الأشخاص لا يمكن أن تتساهم، ومنهم ابتسام عزيز.
- وهل كنت تحبها؟
- لا.
- وكيف؟
- لا أحب هذا النوع من النساء المغرور والمتعالي.
- كاذب أنت. كيف تزعم أنك لم تحب ابتسام عزيز، والجميع كان يحبها؟
- لا شأن لي بالجميع. الحب مسألة شخصية، لا تقليد فيها.
- هل تريد أن تقنعني أنك لم تحب ابتسام؟
- نعم، وبالتأكيد.
- كلنا أحببناها، وأنا ما زلت أحبها رغم أنني تزوجت من امرأة أخرى تختلف عن ابتسام اختلافاً كبيراً.

- ولماذا لم ترتبط بها؟

- لو قبلت بي لما تزوجت من امرأة بعيدة عني.

- سامية امرأة عظيمة تستحق التقدير والاحترام.

- فعلاً تستحق التقدير وليس الحب!

تشعرين أن الحب الذي كنت تَكُنِينَهُ لنصير قد زال عنك، وأنت حين يدركك الصباح سوف تطلبين منه الطلاق. ولكن هذا الطلب لم تقومي به، فقد فكرت في الصباح أنه من غير المناسب أن تطلبي الطلاق وأنتما في بداية حياتكما الزوجية. سوف تتركينه، وتنسين أنه لم يبالي بك، وصرح بحبه لابتسام. وبعد شهور قليلة على ذلك التصريح الأثم، نصير صار في مجهول المصير. فإلى أين تتوجهين؟ ومن يمكنه أن يضمد جراح النفس والروح التي سببها نصير، وأكملها القبض عليه؟ أي مصير سوف تلاقين أيتها المخلوقة؟ جيرانك الذين يحبونك يحصدهم سيف الموت ويخطف أرواحهم. تعرضت الأسرة إلى الإبادة، ولم يسلم من المصير الأسود إلا ابنهم الصغير.. فتمني أن يعود إليك من قضى على ما تحملينه له من حب أيامكما الأولى. الحياة مع رجل لا يحبك أفضل من البقاء وحيدة في هذه الصحراء.

يعود نصير إلى منزله جثة هامدة. سلبوا منه الروح، وأعادوه من حيث أخذه، وهم يقولون لسامية التي بقيت تنتظر عودته:

- نعيد إليك زوجك، ويل لك أن تخبري أحداً أن زوجك عاد!

تصمت سامية، لم تعد تستطيع الكلام. تزورها امرأتان من

الجيران، أم أحمد وأم غائب، ويساعدان سامية في عمل مجلس العزاء. وصوتهم المحذر يلاحقها:

- حذار من إخبار الناس، لا تتجرئي بإقامة مجلس الفاتحة، سوف نلحقك به إن خالفت تعاليمنا!
قالت جارتها:

- تركوك وحيدة، لا أحد معك يخفف عنك جراح الحرمان وجفاف فقدان.

- كلنا نعاني من الظلم.

- إلى متى نصبر؟

- ماذا نفعل؟ ليس بمقدورنا أن نفعل شيئاً.

- وهؤلاء الضحايا؟ لماذا يسرقون أرواحهم البريئة؟

- نخشى على سامية، سوف يعودون إليها وتلقى نفس مصير زوجها!

- وما العمل؟

- ننصحها أن تغادر هذا المنزل بسرعة!

- أين تذهب؟ وهي وحيدة في العراق؟

- ليست وحيدة، والداها في الكويت!

- وأشقائها معدومون!

- إن لم تغادر سوف يقضون عليها.

- حرام أن يغتال كل هذا الشباب!

- هي عروس، لم يمض على زواجها سوى عشرة أشهر!

- لتنج بنفسها وتحافظ على من في بطنها.

- كم بلغت من الحمل؟
- ثمانية أشهر.
- النجاة موجودة، لتطلب إجازة من عملها، وتسافر إلى الكويت لتلد قرب والديها.
- سمعت أن أمها مريضة.
- بعد أن أعدم أولادها، أقعدها الحزن عليهم!

* * *

ويلك، أعادوا لك نصيراً، وقد صدقوا بوعودهم. ولكن...؟ لماذا تسرع نصير بفضح مكنونات قلبه لصديقه الزائر؟ هل أفقده السكر القدرة على لسانه الذي لا يمكن أن يبقى بلا حركة؟ ألم يهتم يوماً بما تحمليه من حب قد استوطن في ضلوعك؟ ظننت أن حبك لنصير قوة لك، وإذا بك تدركين أن ذلك الحب ضعف ومهانة. لماذا أقدم على الزواج منك؟ هل أنه رُفض من جميع اللاتي أحبهن وعشق جمالهن الخارق وفتنتهن الساحرة؟ ورغم لوعتك وانهيار قصة حبك، فأنت أرملة الآن. فقدت النصير الذي يحنو على ألمك ويحاول التخفيف من أوجاعك الآخذة بالتضخم. لماذا بقيت معهما وزوجك ييوس بالسر الذي لم يكشفه لك:

- أحببت عدداً من المرات، ولا واحدة منهن بادلتني مشاعري.
- أنا أحبك!
- أحببت سميرة وسعاد ومهجة وابتسام.

- وأنا أيضاً.

- أنت؟ أحبك الآن، لهذا سأقدم لخطبتك بعد أيام. ولكنهن جميعاً غادرني حبي لهن بعد أن أدركت أنهن لا يحببن شخصي.

- أنا أحبك.

- أعرف هذا حبيبتي، وأعجب لإنسانة ناجحة مثلك أن تقع في غرام رجل فاشل مثلي!

- أنت ناجح!

- القرد في عيون حبيبته غزال.

كيف لم تستطيعي أن تكشفني دخيلة الإنسان الذي اخترته زوجاً، يشاركك الأفراح والأحزان؟ وكيف ارتضيت أن تهوني نفسك، وتستجدي الحب من شخص لا يمكن أن يقدم لك ما ترغبين به؟ ولماذا أباح نصير بما يضره في شهر عسلكما؟ ألم يكن من المناسب أن يؤجل لحظة الاعتراف إلى زمن آخر؟ وأنت ما بالك؟ لماذا تسترجعين أحزانك السابقة لتضيفيها إلى أحزانك الجديدة؟ أنت أرملة الآن بعرف الناس والمجتمع. من يمكن أن يضمد جراحك الفاعرة فاهاً؟ ومن يقف بجانبك؟ وكنت زوجة تتمتعين بحب زوجك بنظر الناس، وبعضهم يغبطك على النعمة التي أنت فيها. لقد عاد نصير إليك وقد سلبوا روحه التي لم تكن لك في يوم من الأيام. هل تتوحيين كما تتوحي الأرامل؟ أم تلطمين على وجهك كما التكالي النائحات؟ ومن بقي معك في يم الأحزان الذي دخلته دون دراية منك؟ تفوضين أمرك إلى الله. كم في هذه الدنيا من أناس مجروحين يحسبهم الناظرون إليهم في واقع مفرح. الأسرة الوحيدة التي تستمع إلى أنينك وتحاول التخفيف من حدته رحلت جميعها،

لقيت نفس مصير نصير. من يمكن أن تلجئي إليه لتبثثيه
أحزانك الجسام؟

* * *

السيارة مسرعة تنهب الأرض. يستولي الخوف علي أن تفقد
السيارة اتجاهها وتنقلب. لا أخبر العزيزة سامية بمخاوفي. أرى
علامات الحزن واللوعة ظاهرة على محيا عزيزتي. يمضي
السائق بسرعة متناهية:

- خفف السرعة رجاء!

- إن كنتم تريدون الوصول بأمان، لابد أن أسرع!

- نعم، أفهم، لكنك تسير بسرعة مائة وخمسين كيلومتراً!

- الطرق البرية تحتاج إلى هذه السرعة، لسنا في المدينة
سيدتي!

- خفف السرعة من فضلك، أريد مكاناً آمناً!

- بعد قليل أحقق لك طلبك، اصبري سيدتي!

- أنا أتألم أيها السائق!

يقف السائق في مكان تحت شجرة كبيرة الأغصان، ويقول:

- هيا سيدتي، اقضي حاجتك بسرعة.

تذهب سامية لفترة قصيرة ثم تعود. ينطلق السائق بأقصى
سرعته. نرى من بعيد يداً تلوح أمرة بالتوقف:

- إلى أين تمضون؟

- إلى الكويت.

- لماذا؟
- حتى ألد قرب والديّ.
- ومن هذا الطفل؟
- إنه ابن أختي، سوف أذهب به إلى جدته!
- وأين أمه؟
- ماتت!
- وأين أبوه؟
- في جبهات القتال.
- هل حصلت على رخصة؟
- حصلت على إجازة ولادة من عملي.
- ومن الجهات الأمنية؟
- لم أحصل!
- عودي من حيث أتيت!
- يحاول السائق العودة، لكنه يغير اتجاه السيارة. يرى رجلاً يشير له:
- إلى أين أنتم متوجهون؟
- إلى الكويت.
- هل أنتم عراقيون؟
- نعم.
- مرحباً بكم، نحن شعب طيب، تتعرض دائماً إلى الصعاب.
- وهل أنت حبلى يا سيدتي؟

- نعم.

- أنت تشبهين ابنتي. إن سألك أحد عن الرخصة في السفر،
أجيبني أنك حصلت عليها.

* * *

في ليلة ظلماء غاب عنها القمر، تهيئين نفسك للرحيل. لا تتوقعين أن سفرتك ستطول، لهذا لا تأخذين معك جهاز التسجيل والكاميرا، ولا كاسيتات الغناء لفيروز وأم كلثوم. كنت تشتغلين بالصحافة قبل إقدامك على الانتحار باختيارك زوجاً لا يتناسب معك فكرياً ولا عاطفياً. وضعت الملابس القليلة التي اشتريتها في بغداد. وبعد أن تضخم جسدك ولم تعد ملابسك الجميلة التي أتيت بها في سفراتك الكثيرة إلى أوروبا تصلح لك، أبوك أرسل لك حقيبتين سفر مملوءتين بملابس الأطفال. من عاداتكم أنتم أهل الجنوب أن تجهزوا ملابس الطفل الأول للابنة. ظن نصير أنه سوف يتكلف بملابس القادم الجديد وقال لك مرات عديدة:

- ليس بإمكاننا أن نشترى ملابس لطفلنا، وقد اقترحت أختي أن تعطيني ملابس ابنها محمد. تقول إنها ما زالت جديدة!

- أبي أرسل لنا حقيبتين كبيرتين لملابس الطفل القادم.

- ولكن أختي تريد أن تكرمنا.

تصمتين، ليس من عادتك أن تجرحي أحداً. تذهبين إلى بيت شقيقة نصير، تعطيك قمطاً ما زالت آثار البراز ظاهرة عليه. لا تقولين شيئاً، وحين تعودين إلى المنزل وترى شقيقتك القمط تقول:

- ما هذا يا حبيبتي؟ أبي أرسل لكم كل ما تحتاجون

لطفلكم.... هل يمكنك أن تشعرني بالراحة وأنت تضعين طفلك في قماط وسخ؟ أنتما الاثنان تعملان ولكما راتب كبير.
لم تخبرني شقيقتك أن زوجك يكرم أسرته براتبك ولا يبقى لكما شيء.

تخرجين في الفجر في سيارة أجرة وحدك مع ليث الذي رحل أحبابه وتركوه بعهدتك. أنت أمه وأبوه وأخته وحبيبته. سوف تذهبين إلى أبويك العجوزين، اللذين أنهكهما الحزن والحنين على أولادهما، وبقيت أنت ابنتهما الوحيدة. هما يحبانك، ويقفان بجانبك مخففين عنك الآلام مزيلين الصعاب.

السيارة مسرعة، يكاد السائق أن يطير. كلما رجوته أن يخفف من سرعته الفائقة، كانت إجابته جاهزة:

- أخشى أن يعيدوك إلى مكانك سيدتي!

- من هم؟

- أولئك الذين هربت منهم في هذا الفجر!

تتضخم مخاوفك. السائق ليس عراقياً، كيف عرف بالرعب الذي تعيشونه كل ساعة، وبالضحايا الأبرياء الذين سفكت دماؤهم الزكية، ولم يرتكبوا إثماً؟ كلمة واحدة قد تؤدي بقائلها إلى التهلكة. وأنتِ كم من المرات تلقيت التهديدات بأنهم سوف يلقتونك درساً إن لم توافقي على الانتماء لهم. وأنت المستقلة التي لا ترغب أن تكون منحازة إلى جهة سياسية.

السيارة تنهب الأرض، وأنت حامل في الشهر التاسع، وتحتاجين إلى راحة. ماذا يمكن أن تفعلي إن أراد طفلك أن يخرج إلى العالم الآن؟ من يساعدك بالولادة وهذا طفلك الأول لا تعرفين كيف يكون الطلق، وكيف تكون الولادة، وماذا تفعل المرأة الحبلى كي تساعد طفلها على المجيء؟ وهل ستجدين

الطبيبة التي تعينك على الألم الكثيرة التي ستكون أمامك و عليك اجتيازها؟ الطفل الصغير اليتيم الذي رحل معك وترك وطناً لا يعرفه إلى مكان آخر يجهل معالمه. كيف تحافظين عليه لتريح النفوس البريئة التي أزهقت، وكانت أصحاباً لك وأحباباً؟ يقف السائق:

- هذا مكان مناسب لك سيدتي، لا تتأخري!

* * *

قال الرجل:

- قفوا، أنتم في ديارنا. مرحباً بكم. أنت متعبة سيدتي، سوف تستريحين في القسم الصحي للحدود. هاتي رقم هاتف الوالد، لنتصل به.

يأخذون نقاطاً من دم سامية:

- هل تعرفين فصيلة دمك؟

- نعم... B+.

- سوف تجري لك بعض الإسعافات.. أنت متعبة كثيراً، كان يجب أن تعتني بصحتك وصحة الجنين.

يقدمون لسامية عصيراً من الليمون ويقترحون أن ترتاح قليلاً حتى يأتي والدها.

- اتصلنا بأبيك.... أخبرنا وكيله في العمل أنه سينجز بعض الأعمال الضرورية ويتوجه إليكم.

يدع الرجل سامية ترتاح من عناء السفر ويومئ لي أن يحدثني على انفراد:

- أنتما وحيدان وأنت صغير جداً، لكن السيدة ليس معها أحد. توفيت أمها وذهب أبوها للدفن. لا تخبرها، لئلا تزداد صحتها سوءاً. قلبي معكم أيها العراقيون! كم تبلغ معاناتكم!

يصيبني الفزع. أتذكر أبي وأمي وإخوتي والمصير الحزين الذي آل إليه أفراد أسرتي. أصمم ألا أخبر سامية بالأمر، وأن أكون لها نعم الابن والصديق.

تأتي الممرضة وتقيس نبض سامية التي تعاني من ارتفاع بالضغط وببطء في نبض القلب، وتعطيها كأساً من العصير. تشربه سامية وتسترخي أعصابها المتوترة. قلبي معك أيتها السيدة، يستشهد زوجك، ثم تموت أمك وجنينك يعاني التعب وهو لم ير نور الحياة بعد.

يصل والد سامية وهو يرسم البسمة على محياه المتعب:

- سوف تنعم سامية بالراحة بعد أن يأتي طفلها.

أفكر أنا بأن طفلاً سيأتي قريباً إلى العالم، سيكون أخاً لي بعد أن حكم على أسرتي كلها بالفناء.

تتعرضين إلى تعب شديد. يستبد بك الخوف ويحيطك القلق، وأنت تغادرين البلد الحبيب إلى بلد آخر زرتة مرات عديدة، وتربطك وشائج قوية مع قوى هناك تؤمن بالعدالة والنقد. تشعرين أن الأرض تتحرك بك وتميد، وأنت الحائرة التي وفقت كل قوى الظلم والطغيان ضد إرادتها، وسلبتها حريتها وما استطاعت أن تتوصل به بالنضال المتواصل. جينيك الحبيب يجب أن تعتني به ليأتي إلى العالم قوياً، رغم فقدانه المتكرر لدماء كثيرة. لم يكن لك يد فيها. لقد حرصت أن يكون

طفلك بالقوة التي تطمحين إليها. وحين ذهب الجميع ولم يبق معك إلا القليلون، أصبح من واجبك أن تعتني بالهدية التي جاءت مكافأة لصبرك وشدة تحملك للصعاب. تشعرين بدوخة كبيرة، ولا تعرفين مبعثها. هل هو انخفاض بالضغط أو هبوط؟ في الأيام القليلة التي جاءت بعد فجيعتك بنصير، كانت الدوخة تلازمك، ويقيس الطبيب ضغطك:

- المصيبة التي تعرضت لها جعلت ضغطك يرتفع وينزل في نفس الوقت!

- كيف ذلك يا دكتور؟

- في الكوارث يتعرض الإنسان لمثل هذه الأمور. ونحن في العراق كم من مصائب مرت بنا واجتزناها، ولكنها تركت آثارها على الروح والبدن.

الأيدي تتحرك. تشعرين أنها تنتشلك مما ألم بك. يضعون على أنفك جهازاً للتنفس ويربطون المغذي بيدك، ويسألونك:

- هل تعرفين فصيلة دمك؟ أنت تعانين من فقر دم مرتفع! تحتاجين أن تمكثي هنا لإجراء بعض الفحوصات على صحتك وصحة الجنين.

ترحبين بالأمر. صحة الجنين تطلبينها، وصحتك ضرورية جداً للمحافظة على الجنين بصحة جيدة.. تسمعين من يقول دون أن تتمكني من الرد:

- هل أنت ابن المريضة؟

- لا.

- من أنت؟

- إنها خالتي.

- أنتم في العراق تتعرضون باستمرار إلى كوارث شديدة.
ظلم كبير وضحايا أبرياء يتساقطون، وفقر وفاقة وحرمان رغم
ثروات بلدكم الضخمة. ما زلت صغيراً، ربما لا تفهم هذا
الكلام!

- أفهمه تماماً. لقد فقدت أبي وأمي وأخواتي وإخوتي قبل
أيام.

- في نفس الوقت؟

- نفس الوقت.

- وماذا فعل أفراد أسرتك ليلاقوا هذا المصير؟

- لا شيء.

- في كل مكان لا يقتل الإنسان إلا إذا كان مذنباً، إلا في
العراق. يذهب الأبرياء الطيبون قرابين لما يتطلعون إليه. نحن
نحب بلدكم وناسه، فإنكم طيبون.

الفصل الثاني

والد سامية طيب جداً وحنون. تبدو الابتسامة على وجهه رغم تعبهِ الشديد، والأحداث الحزينة التي مرت على أسرته. يطلبه الطبيب للحديث معه. يغيب لفترة قصيرة ثم يعود موجهاً حديثه لي:

- جئتُك بخيرين: الأول حزين والثاني مفرح جداً.
- ما هما جدي العزيز؟
- الخبر الحزين أن جنين سامية متعب جداً ولن يستطيع أن يأتي إلى عالمنا إلا بعملية قيصرية!
- والخبر المفرح؟
- أن سامية ستكون بخير، وتتمتع بالصحة والعافية.
- يسرني الخبر. سامية حبيبتي سوف تسترد صحتها وستكون

سعيدة معي ومع أبيها الحنون. لقد عانت الكثير من المتاعب، وأن لها أن تجد الراحة. هي تحب وطنها ولن تستطيع الابتعاد عنه. ولكن ماذا تفعل؟ وحياتها كانت مهددة بالوَأَد إن بقيت هناك في الوطن الذي تعشقه. حكامه ليسوا جيدين. نصحتها الأصدقاء أن تسارع بمغادرة الأرض الطيبة التي شهدت طفولتها وشبابها المقموع وحريتها المفقودة. زوجها استشهد وأغلب أصدقائها ومعارفها غيهم الموت سريعاً. اختارت بلداً قريباً من العراق، لأن أباهما الحنون فيه ولأن الكويت قريبة من العراق. وهي تطمح أن تتمكن من العودة قريباً إلى ربوع بلادها. تأمل أن يتغير النظام وأن يعود أهله لبنائه من جديد. سامية بعيدة عني الآن. صحبتها الممرضة إلى غرفة الولادة لإجراء العملية القيصرية واستخراج الجنين الذي لم يتحمل مقدار الحزن والألم اللذين تجربتهما سامية بكل إصرار وصبر، وتصميم على مواصلة النضال لتشرق الشمس من جديد، وتغسل بنورها ما علق بالعالم من شرور. يغيب عني والد سامية لبعض الأمور. أنتظر أن تعود سامية وهي باسمه الوجه كما عودتني.

يعود أبو سامية:

- الأطباء يقولون إن سامية تحتاج إلى عناية طبية مدة يومين. سوف يكشف عليها الأطباء.. ليعرفوا مدى حاجتها إلى الرعاية. أخبروني إنها تعاني من فقر شديد بالدم، سوف يقومون بعلاجها من الضعف الذي يصاحبها.

- ونحن؟ جدي.

- سنذهب إلى منزلنا ونأتي لزيارتها مرتين كل يوم.. وفي اليوم الثالث يجرون لها عملية الولادة.

أخرج مع الجد العزيز وأنا أطلع أن تكون سامية معي،

لكني سأصبر. يومان وينتهيان.

* * *

الناس هنا يعتنون بك. يا لتعبك القاسي وللمرارة التي تشعرين بها، والأيام تسير بك من مصيبة إلى أخرى. لست من الذين يتساءلون:

- ماذا جنينا في هذه الدنيا ليكون مصيرنا الهم والحزن؟

أنت واثقة أن المبادئ التي تسعين إليها لها أعداء كثيرون. لا يناسبهم أن يكون العالم بخير، وأن تتحقق المساواة بين بني البشر. يصل أبوك إلى المستشفى. لا تستطيعين أن تقومي من فراشك لتعانقيه. القيود التي وضعوها - الأوكسجين والمغذي - يفقدك القدرة على تحقيق ما تتطلعين إليه. أبوك المحب الحنون كم ابتعدت عنه، وكم حالت أحوال البلاد عن اجتماعكما. يعرف أبوك أنك عاشقة للورد، فيأتي إليك بباقة من الورد الجوري الذي تفضليه على كل الأنواع. تظلين مدة يومين غير قادرة على الحركة كما تحبين. أمر الطبيب أن ترتاحي لبعض الوقت تكونين بعدها قد استردت عافيتك التي غابت عنك. تنفذين تعليمات الطبيب وتمتثلين لها. الضعف الذي تعانيين منه يخبرك الطبيب أنه خف عنك. ليث الحبيب يراك بعيدة عنه لا تتمكنين من احتضانه، ولا يدرك أن الضعف هذا وقتي سوف لن يدوم. تشتاقين إلى سماع الألحان التي تعشقينها وقد حرمت منها فترة طويلة. قبل خروجك من الوطن الحبيب، تقررين أن تستعيدي قوتك، وأن تتحرري من أحزانك التي حفرت لها أخاديد في الروح والبدن. تطلبين من أبيك أن يأتيك بجهاز صغير تتمكنين بواسطته أن تستمعي إلى الألحان:

- أعرِف يا ابنتي أنك تحبين الأنعام، فجئتك بالجهاز الصغير الذي تطلبين!

تفرحين بما أتاكَ به الوالد. هو دائماً يقرأ أفكارك، ويعرف ما تتطلع إليه نفسك. وكم أهداك من الأشياء التي كنت تتطلعين أن تكون معك. أشياء بسيطة تحمل الفرح إلى النفوس وقد حرمك منها نصير، رغم أنها لا تكلف شيئاً. ماذا تفعلين يا سامية؟ لماذا تتذكرين ما يحزن النفس ويسبب البؤس للروح؟ ألم تقولي إنك آليت على نفسك أن تحاربي الأفكار الحزينة، ولا تدعيها تستوطن القلب فتسبب له التعاسة والآلام؟

أنت تحتاجين لبعض الراحة كي تستعيدي صحتك وينال طفلك ما يحتاج من شعور بالأمان. فابتعدي عن الأحزان واجعليها تهرب من عالمك، لتعيشي بسلام واطمئنان. فإن الإرادة تصنع ما يسعى إليه الإنسان. فقوي إرادتك وعيشي كما تحبين.

* * *

الجد يقوم من نومه الساعة الخامسة كل صباح. يقوم بتنظيف المنزل وإعداد طعام الغداء والقيام ببعض التمارين الرياضية التي تحفظ شباب الروح والبدن. ثم يغلي ثلاثة أكواب من الماء، ويعصر عليه ليمونة حامضة. وحين يبرد قليلاً، يشربه مع ملعقة من العسل. يقول له الطبيب:

- الماء الساخن مع عصير الحامض والعسل يقيك من الأمراض.

يتناول الجد تفاحة كل صباح، ثم قطعة من الخبز الأسمر وقطعة من الجبن الأبيض أو بيضة مسلوقة مع الشاي. وبعد ساعة يشرب فنجاناً من القهوة. في ذلك الصباح هياً لي أولاً

طعام إفطاري قبل أن يتناول هو فطوره. وذهبنا معاً لنشتري باقة ورد لسامية التي تعشق الورود.

وجد سامية في حالة نفسية جيدة. لقد نالت قليلاً من الراحة واستعادت صحتها بعد أيام قضتها في الخوف والرعب والحزن على فراق زوجها فراقاً أبدياً.

قال الطبيب:

- سوف تمكث السيدة معنا يوماً آخر ليتم شفاؤها.

رحب الجد بقول الطبيب، وتمنيت أنا أن تخرج سامية من المستشفى. فقد اشتاقت نفسي إلى الإنسانية التي أنقذتني من اليتيم والحرمان.

تحدثنا مع سامية عن الورود التي تحبها، وعن الباقة التي ابتاعها والدها فالت إعجابها الشديد. وطلبت من الممرضة أن تضع باقة الورد في مزهرية، فاستجابت الممرضة للاقتراح.

خرجنا من المستشفى ونحن مطمئنون أن سامية بخير، وسوف تجتاز المحنة بقوة.

تناولنا طعام الغداء ثم ذهبنا إلى أحد الأسواق الكبيرة. فاشترى الجد علبة شوكولاتة غامقة اللون من تلك التي تفضلها سامية. وفتح لي التلفاز لأشاهد برامج الأطفال التي أحبها. وأمسك الجد بالجريدة ليطلع على أخبار العراق التي تنصدر الجرائد. وأنا أشاهد التلفاز رحت في نومة عميقة، لم أفق منها والجد يحملني وينقلني إلى سريري.

في الصباح قام الجد ببرنامجه اليومي ثم ذهبنا معاً إلى المستشفى لرؤية سامية.

قبل أن تتزوجي وترتبطي بنصير، كنت متأثرة بوالدك. تقومين في الصباح لأداء التمارين الرياضية التي تقيك من المرض وتحفظك من السمنة، وتجعلك متفائلة. تستقبلين نهارك بابتسامة، وتحرصين على أداء واجباتك، ليس لأنها واجبات مفروضة عليك، إنما لأنك تحبين إتقان الأعمال ومحبتها. ومهما كانت صعبة، فإنك تبذلين الجهود كي تجعلها تتيسر أمامك وتخف صعوبتها. لم تستطيعي أن تحافظي على البرنامج الذي يسعدك. مضت الأيام دون أن تتجحي في الوصول إلى فرح حقيقي. يقول أبوك:

- الفرح يكون حين ننجح في إتقان أمر كان صعباً علينا في البداية.

وكم وجدت هذه الحكمة صائبة، وقمت بتنفيذها. أي عمل يوكل إليك، تتمرنين عليه، فتجدين الصعوبة قد زالت. تمارينك الصباحية كانت تضع البسمة على محياك. ومهما اشتدت الخطوب أمامك، فإن الابتسامة تخففها. ولا تعرفين ماذا أصابك بعد الزواج؟ هل زادت مهامك أم انعدمت فرص التشجيع لك؟ لم يكن نصير ميالاً إلى زرع الثقة في نفسك. وكثيراً ما كان يستهزئ بقدراتك. يضحك باستصغار حين تصممين على أمر. أراد أن يغتال الثقة التي زرعتها أبوك في نفسك، فأصبح التردد صديقك، وازداد وزنك وتضخم بدنك. ولم تعد الرشاقة تشغلك، وأنت تدركين أن الرشاقة تعني الصحة. ملابسك الأنيقة لم تعد تناسبك. حين كبر بطنك، واحتجت إلى ملابس للحمل، أخذ نصير يصرخ:

- خزانة ملابسك مليئة بملابس جديدة! لماذا تصرين على شراء أخرى؟

- لأنني زدت وزناً.

- ولماذا يزداد وزنك؟

- لأنني حبلى.

- أعرف نساء كثيرات لا يسمحن للحمل أن يضخم أجسادهن. ألا تخشين أن يتحول حبي إلى امرأة رشيقة؟

تحاولين أن تبعدي الأفكار الحزينة عن رأسك. تبحثين عن ذكريات سعيدة لك مع نصير، فلا تحظين بها. ولكنك تترحمين على الراحل الذي خدعك بحبه المزعوم. ترسمين الابتسامة على وجهك. تحاولين أن تبتعدي عن الآلام. أبوك.. ذلك الرجل القوي كما يسميه أصدقائه جاءك اليوم، وهو يحمل لك ما تعشقين: باقة ورد عطرة، وعلبة من الشوكولاتة السوداء التي تحبين. وطفلك الحبيب سوف تستقبلينه بفرح يليق بمن سوف يأتي إلى هذا العالم، ويساهم في خلق فرص السعادة للناس. فلتفرحي أيتها الإنسانية المتعطشة للفرح، فقد ابتسمت الدنيا بعد عبوس استمر أشهراً معدودات. والعمر كله أمامك. ما زلت في ريعان شبابك. سيأتي طفلك السعيد ويكون أخاً للحبيب ليث، الذي حكم عليه باليتم والحرمان.

* * *

نصل مستشفى الولادة، نجد أن سامية قد أُجريت لها عملية قيصرية. قبل أن أسأل عن الطفل، تومئ لي الممرضة:

- الطفل ولد ميتاً، لا تظهر حزنك أمام المريضة.

يسأل الجد:

- لماذا ولد الطفل ميتاً؟

- تعرضت أمه لمتاعب نفسية شديدة، وما يحصل للأم يؤثر

على جنينها، الذي لم يتحمل المصائب التي عرفتھا أمه، فودع العالم مفضلاً الابتعاد عن جحيمة.

- وكيف صحة سامية؟

- ابنتكم قوية، لهذا سوف تتماثل للشفاء قريباً.

- ما الذي تعانيه؟

- ضعف عام وهزال شديد وكآبة.

- لماذا أصيبت بكل هذه العلل؟

- الوضع في بلادكم مأساوي. بالحب يمكن أن تشفى المريضة. فقدان زوجها وجنينها الذي كان ذكراً أصاب روحها بعلقة، وعليكم تعتمد لجعلها تحيا حياتها الطبيعية بلا أحزان تسلب منها الصحة النفسية والبدنية.

شعرت بالألم. كنت أرجو أن تأتي لي سامية بالأخ الذي حرمني منه الطغاة. ولكن ماذا أفعل؟ سوف أحيا بصحة وسعادة مع مخلوقين رائعين: سامية التي أنقذتني من الهلاك مع أسرتي، وأبيها الحنون.. سأتعلم منهما كيف أقضي على شعوري بالحزن قبل أن يتمكن ذلك الشعور من تبديد فرصتي بالسعادة.. أيام قليلة أعيشها مع هذه الأسرة الرائعة، فتحول حياتي من اليتيم وشعور بالفقدان إلى أمل وتطلع إلى غد أفضل.

يجعلونك تنامين على سرير مريح في مستشفى الولادة، وقد شربت قليلاً من المخدر كي لا تشعرى بالآلام مبرحة ما زلت تعانين منها. تجهلين ما الذي جرى. أجروا لك عملية قيصرية لاستخراج طفلك الذي كان من الضعف والهزال بحيث لا

يستطيع أن يخرج إلى العالم بدون مساعدة. وفتح بطن أمه. تتطلعين إلى طفل صحيح الجسم والعقل. لقد بذلت جهودك من أجل هذا الطفل. تحملت الأوجاع التي سببها أبوه بصراخه المتواصل بوجهك. كل ساعة يصرخ بأعلى الصوت مهدداً سلامتك الروحية، وسالماً منك يقينك بأن العالم المملوء قبحاً يمكن أن يرى إشراق النور، وأن النفوس التي يسعدها إيلام البشر يمكن لها أن تفرح لبهجة الناس وتجد الراحة حين لا تسبب ألماً. لماذا كان نصير دائم الصراخ؟ وما الذي جعله بهذا العنف؟ كل صرخة يقوم بها تخشين أن تسلب حياته، فتُسألين نفسك:

- أنا الغريبة هنا، ماذا يمكنني أن أفعل إن أزهقت روحه بصراخه العنيف؟

لم تعودى تشعرين بالأحداث من حولك. النوم العميق بفعل المخدر يجعلك في راحة كنت تتطلعين إليها. يزول تأثير المخدر على عقلك. تفتحين عينيك، ترين أحبابك حول السرير بيتسمون لك بحب. والدك الحنون وصديقك اليتيم ليث، ولا تجددين طفلك:

- أين طفلي؟

- نعم؟ آه.. هناك ينام في سرير الصغير.

- أريد أن أحضنه وأطعمه حليبي!

- سوف نأتي به إليك بعد قليل.

يطول بك الانتظار. أين يمكن أن يكون طفلك؟ وكيف شكله؟ وهل كسب صفاته منك أو من أبيه؟ وهل سيكون مثل أبيه ميالاً إلى العنف؟ أم يكون مثلك في الطيبة والهدوء؟ يتحدث أبوك بمختلف أنواع الحديث، ولا يأتي على ذكر الطفل الذي تشتاقيين

إليه كثيراً. تحملت كل أنواع القهر من أجل أن تكوني أما!
توجهين سؤالك إلى أبيك:

- هل رأيت طفلي؟

..... -

لا يجيبك أبوك. تسألين ليث:

- هل رأيت طفلي يا ليث؟

ترين علامات الحيرة على وجه الصغير. لماذا لا يريحك
ويجيب عن أسئلتك؟ هل الطفل في صحة جيدة؟ ولماذا وضعوه
في مكان بعيد عن أمه التي تحبه؟ ولماذا يسكت الجميع إن
وجهت لهم استفساراً عن طفلك؟ أين هو وكيف شكله؟ ومتى
يأتون به إلى حضن أمه؟

وأنت في شدة الحيرة تسمعين أباك:

- سامية حبيبتني، اسمعي ما يخبرك به الطبيب، وكوني قوية
كما عهدناك!

- طفلك سيدتي لم يستطع القدوم إلى دنيانا.

- ماذا تعني يا دكتور؟

- لقد ولد ميتاً.

الخبر يقع عليك كالصاعقة:

- لماذا؟

- لأنك قد نزفت مرتين، ومررت بأوجاع ومشاكل رهيبة!

- ولماذا لم أمت أنا؟

- الطفل ضعيف لا يتحمل كما الكبار سيدتي!

* * *

تشعر سامية بحزن وألم شديدين. علمت سبب فقدانها للطفل الذي حلمت بوجوده ليذكرها بالحبيب الراحل الذي أبعد عن الحياة عنوة. يقترح لها أبوها المسيرة التي يجب أن تنتهجها لتحظى بسلام روحها الحزينة الكئيبة. يقترح عليها أن تنضم إلى أحد الأندية الرياضية التي تمارس رياضة اليوغا. سامية لاعبة ماهرة لهذه الرياضة الجميلة. توافق سامية على اقتراح أبيها، وتتمكن من الخروج من الحالة المرضية التي كانت عليها. تعود إلى رسوماتها التي تخلت عنها بعد الزواج. فهي رسامة ماهرة تخرجت من أكاديمية الفنون الجميلة. وبدلاً من أن تُعين في وظيفة تتناسب مع ميولها وكفاءتها، فقد عُينت في الاستعلامات. وكانوا يريدون بهذا التعيين أن يجعلوها لا تحب العمل ولا تبدع فيه. ولكن إخلاصها جعلها تحب كل مهنة تُنسب إليها. فأحبت وظيفتها في الاستعلامات، وكانت تفضل أن تكون مدرسة لفن الرسم في إحدى ثانويات بغداد. ولكن أملها في الحصول على مهنة التدريس خاب، فهي ليست من الحزب الحاكم. وقد حاولوا كثيراً أن يجعلوها تنضم إلى حزبهم لكنها رفضت بإصرار.

أخبرها أبوها:

- سأقدم أوراقك إلى وزارة التربية الكويتية طالباً تعيينك مدرسة للرسم في إحدى مدارس الكويت.

تسعد سامية بالخبر. منذ أن درست في الأكاديمية وهي تتمنى أن تكون مدرسة لمادة الرسم التي تحبها. كانت متفوقة في دراستها. يعجب بلوحاتها كل من اطلع عليها. توقع لها أساتذتها ومعارفها والأصدقاء مستقبلاً باهراً في الفن. ولكنها أبعدت عن تحقيق حلمها بعنف وفضاظة. والآن، وبعد هروبها القسري من وطن أحبته بكل خلجة من خلجات قلبها، يعود

أملها إلى الحياة من جديد. وقد ظن بعض المعارف أن الآمال الميتة لا تعود إلى الحياة مرة أخرى. تدرك سامية أن الآمال لن تموت، وإن خبت لظرف من الظروف، فإنها سرعان ما تشهد حياتها الحافلة مرات أخرى.

تمضي الأيام وسامية تنشط في الحياة المدنية التي نجد لها فعاليات متعددة في بلاد الكويت. وتأمل أن يتحقق حلمها في التدريس بسرعة.

تمر ثلاثة أيام ويأتي أبوها حاملاً لها البشري:

- هياي نفسك يا ابنتي!

- لأي شيء؟

- في وزارة التربية يريدون مقابلتك، ومعرفة أهليتك لوظيفة مدرسة لفن الرسم!

- مرحباً بهم يا أبي.

- مرحباً بك وبهم.

- متى؟

- يوم الاثنين القادم، أي بعد أربعة أيام. جهزي بعض لوحاتك التي تتضمن معاني تربوية.

تفرحين لسماعك الأخبار الجميلة. ما زال في الدنيا متسع لقلبك أن يفرح ويتطلع إلى الحب والسعادة. فلا يمكن أن تزول أحلامك بانبثاق النور من ركام التعاسة الذي عشته مدة شهور. ولكن ظلال تلك التعاسة تعود إليك بين آونة وأخرى كي تقول لك إن قدرات الإنسان محدودة في تجاوز الآلام. شتان بين قوة

أبيك المتطلع إلى الحياة بتفاؤل، وزوجك الراحل المتشائم الذي لا يرى أي بصيص للنور في دنيانا الجديدة. تتطلعين أن يأتيك أبوك بالخبر السعيد الذي اشتقت إلى سماعه. درست في أكاديمية الفنون كي تصبحي مدرسة للرسم في إحدى ثانويات بغداد. ولكن أحلامك البسيطة لم تتحقق، ووضعوك في مكان لا تحببته:

- أحبي الناس يا ابنتي فإنهم يحملون الكثير من الطيبة.

النصائح التي يرددها أبوك بثقة كفيلة أن تبدد شعور القهر، الذي يحيط بك حباله، ولا يدع لك مجالاً للحركة. تقررين أن تتخلصي من الآثار السلبية لزواجك، الذي لم يدم طويلاً، وجعلك مقيدة تننين من الوجد واندحار الآمال، وعجز الإنسان أن يحفر وجوده وتفوقه رغم العراقيل الكثيرة التي توضع في سبيله. كنت تحلمين بطفل جميل، وها أن الطبيب ينبئك أن الطفل كان من الضعف بحيث لم يستطع الصمود أمام ويلات الدنيا. أبوك قدم لك طلباً للعمل في إحدى مدارس الكويت الثانوية. قدم شهادتك الصادرة من رئاسة جامعة بغداد، وصوراً عن لوحاتك الكثيرة التي نالت إعجاب المشاهدين في الفترة التي كنت ترسمين فيها قبل زواجك. انقطعت عن التمارين أثناء الزواج والحمل والأشغال المنزلية التي لا تنقضي، والتنظيف وغسل الأواني والملابس والتسوق. كل هذه الأعمال الشاقة لم تدع لك مجالاً للاهتمام براحة طفلك. هل كان السبب أنك لم تكوني قوية لتطالب بحقوق طفلك؟ أم لأنك كثيراً ما أشفقت على نصير الكثير الشكوى من حالة الفقر التي يعيشها، رغم أنه يستلم راتباً كبيراً من دولة غنية؟

يأتي أبوك والبسمة تعلو وجهه الحبيب ليبلغك الخبر الذي ترومين سماعه:

- بشرى سارة يا ابنتي الحبيبة.
- ماذا عندك يا أبي؟
- يطلبون مقابلتك في التربية ليعرفوا أهليتك لتدريس مادة الرسم في إحدى الثانويات، كما كنت تأملين.
- خبر سعيد يا أبي، متى يريدون لقائي؟
- في الاثنين القادم. هيئي بعض اللوحات التي تتضمن معاني تربوية.
- الفرح يملؤك.. يجعلك ترقصين. تتمنين أن تقبلي جميع من تعرفين احتفالاً بالنبأ السعيد. تقبلين أباك وليث اللذين وجدتهما يشاركانك الفرح والسرور. يسبقك أبوك في الاقتراح:
- هذا الخبر يستحق احتفالاً. سندعو كل الأصدقاء ليشاركونا الاحتفال بهذه المناسبة السعيدة. وجهي الدعوة لأصدقائك يا ابنتي.
- تمثلين لاقتراح أبيك. تكتبين الرسائل داعية أصدقاءك للاحتفال. بعضهم تتم دعوتهم على الهاتف، في مقدمتهم الدكتور خليل العبيدي، المعروف بوقوفه الدائم معك في كل المواقف. تحضرين المواد اللازمة للاحتفال. تدعين الفرقة الموسيقية التي تفرحين لسماع ألحانها وأغانيها. يقول أبوك:
- أنا على يقين أنك ستنجحين في المقابلة. سوف نؤخر الاحتفال حتى تظهر نتيجة المقابلة.

* * *

عادت سامية وهي في قمة السعادة:

- نجحت في الاختبار يا أبي!

- أنت مجتهدة وحتماً تتجحين! ماذا سألوك وكيف كانت إجاباتك؟

- شاهدوا اللوحات الثلاث التي أخذتها معي. أعجبوا بطريقة رسمي والمعاني التي تضمنتها الرسوم. سألوني عن الألوان الأساسية وعن الألوان التي نحصل عليها من دمج عدد من الألوان.

- وكانت إجاباتك رائعة!

- نالت إجابتي رضا اللجنة المختصة لكفاءات الأساتذة الجدد. ولكن الذي أسعدني أنهم في الوزارة يريدون أن يجعلوا كل الطلاب يحبون مادة الرسم ويقبلون على الدرس بحب.

- وهل هناك طلاب لا يحبون الفنون؟

- نعم، يوجد كثيرون. مع الأسف الشديد، يوجد طلاب متفوقون في كل الدروس العلمية والأدبية، لكنهم لا يهتمون بالدروس اللامنهجية. وفي وزارة التربية يسعون لجعل الطلاب يقدمون على التعبير عن أنفسهم بالرسم كما يفعلون بالتعبير الكتابي.

- وهل سوف يتم تعيينك؟

- أخذوا رقم هاتف المنزل وعنوانه ليرسلوا لنا قرارهم!

- أبارك لك يا ابنتي وأقدم لك التهاني. تعيينك يستحق الاحتفال!

أحاط بي الفرح وأنا أرى حبيبتي سامية بكل هذا السرور. بإصرارها على تخطي الصعاب سوف تحقق النجاح، وتجعل طالباتها في الثانوية يقبلن على درس الرسم بحب ويصبحن في المستقبل رائدات في الحركة الفنية.

سجلتني سامية في إحدى المدارس الابتدائية التي اكتسبت

شهرة في منطقة سكاننا في الكويت في السالمية، لكفاءة معلماتها ومهارتهن في تعليم الصغار وتحبيب المواد لهم، وجعلهم يقبلون على الدروس بفرح ويقومون بواجباتهم خير قيام... ابتاعت لي الدفاتر والأقلام، وقد رأت حرصي على الدراسة والتفوق فيها على أقراني، فشجعتني على ذلك، وبينت لي ما غمض علي فهمه من دروس... قامت سامية بمهام الأم والصديقة والأخت والمعلمة. تطلب مني الاستيقاظ صباحاً وأداء التمارين الرياضية لتقوية البدن والروح. أجلس معها ومع الجد لتناول طعام الإفطار ونحن نستمتع إلى فيروز، ونتحدث بآخر الأخبار، ونحرص على الابتسامة أمام الصعاب الكثيرة التي يُواجهها الناس في الوطن الحبيب.

تشجعتني سامية على مراجعة الدروس وأداء التمارين في الحساب والعربية. وفي الوقت المتبقي لي تعطيني سامية أحد الكتب وتطلب مني قراءته وإبداء رأيي فيما ورد فيه. علمتني كيف أحكم على جودة الكتاب أو سوءه بعد القراءة الواعية. كانت تشرح لي ما غاب عني فهمه. لهذا وجدتني أحرز التفوق في كل المواد. حفظت جدول الضرب وكنت الأول دائماً في الاختبارات التي تجريها المعلمة لتعرف مدى قدرتنا على معرفة جدول الضرب. كنا نقف في دائرة، تسأل المعلمة أحدنا عن الجواب في ضرب العدد خمسة في أحد عشر مثلاً. فإن خاب التلميذ في الإجابة يعود إلى مقعده في الصف، وإن نجح أي منا في الإجابة بقي في مكانه في الدائرة. ومن يظل في نهاية الاختبار في الدائرة يكون الفائز.. كنت الفائز في هذه المسابقات. تعطيني المعلمة جائزة على تفوقي علبة من الأقلام الملونة. وحين أعود إلى البيت وأخبر سامية بالأمر تكافئني بمنحي جائزة أكبر.

كانت فرحتك كبيرة وأنت تجتازين الاختبار بكفاءة. سألوك عن الألوان ومدلولاتها، والتلاميذ الأذكياء المتفوقين في كل الدروس، لكنهم لا يحبون الرياضة ولا الرسم. درجاتهم نهائية في العربية والرياضيات وفي التاريخ والجغرافية، ويكونون الأوائل دائماً على صفوفهم. استفسر أعضاء اللجنة كيف نجعل الطلاب يقبلون على الرسم ويحبونه كما يحبون بقية المواد. كانت إجاباتك من الدقة بحيث نالت استحسان المختبرين. أبديت رأيك أن إدارات المدارس قليلاً ما تبدي اهتماماً برغبة الطلاب بالدروس اللامنهجية كما يصفونها، وأنهم غالباً ما يحولون الدروس الفنية إلى رياضيات أو قواعد لغة عربية. وحتى إنهم لا يهتمون بدروس التعبير التي تتحول إلى درس بالقواعد. أبدت اللجنة الممتحنة إعجابها بإجاباتك.

وأنت كبيرة الفرح هذا اليوم، تنجحين في مقابلتك مع اللجنة الممتحنة للكفاءات التدريسية، ويخبرك حبيبك ليث أنه متفوق في المدرسة على أقرانه التلاميذ. كنت متفوقة دائماً ويسعدك أن ينال التفوق أحبابك. كل شيء مران ما إن نصمم على اجتياز الصعاب ونحن مبتسمون، حتى نجد أنفسنا وقد وصلنا إلى ما نريد ببذل جهود أقل مما لو كنا متشائمين عابسين. لم يخبرك أعضاء اللجنة الممتحنة عن قرارهم، لكنك قرأت هذا القرار وهم يمدحون إجاباتك ويثنون على ذكائك، ويستبشرون خيراً أنهم سوف يجعلون الأستاذ الكفوء في المكان المناسب. لم يكن من عاداتك أن تستعجلي بالفرح، بل كنت تعودين النفس على التريث في الحكم على الأمور وعدم التسرع. أبوك فرح بإجاباتك. هو من غرس هذا الحب للعمل والإخلاص فيه في نفسك، وعودك على بذل الجهود لإتقان العمل الذي نكلف به، حتى لو كان بلا مردود مالي، أو كانت المكافأة المالية أقل من الجهد المبذول. أبوك كان يقول:

- إتقان العمل يعتبر مكافأة للشخص العامل.

أصدقاؤك يفرحون لفرحك ويشاركونك الاحتفال الذي سوف تقيمونه بهذه المناسبة السعيدة. سوف تتهيين للمباشرة بعملك الجديد. ولا تعلمين الآن هل يسألونك عن المدرسة التي تحبين أن تعمل فيها؟ أم هم من يقرر؟ سوف تفرحين حتماً بأي مدرسة ثانوية للبنات، وتكون فرحتك أكبر إن تحققت أمنيتك في العمل في ثانوية الأمل النموذجية لمستواها العلمي المتقدم وإدارتها المتفهمة وطالباتها المجتهديات.

تشعرين بمسؤولية كبيرة تجاه ابنك الحبيب ليث، الذي يشعر بأموئك. أخبرك أنه متفوق في دراسته. أحببت أن تطلعي على رأي معلميه. تراجعين مدرسته. جميعهم يمدحون اجتهاده وحبه للمدرسة وحرصه على أداء التمارين. أستاذ الألعاب الرياضية الوحيد الذي أخبرك:

- ليث مجتهد في كل الدروس ولكنه خجول جداً، ولا يميل كثيراً إلى الاندماج مع زملائه واللعب معهم.

تعرفين أن ليثاً قد مر بظروف صعبة، لم تدعه يعيش طفولته كما هم الأطفال في مثل سنه. وكنت حريصة على أن تساعدني في تجاوز الشعور أن حياته تعيسة وأنه محروم من الأبوين وأفراد الأسرة. لقد أحببته وأحبه أبوك وقدمتما له كل الحب والرعاية. تساعدني في أن يكون اجتماعياً، وأن يذهب لزيارة أصدقائه، ويستقبل زملاءه بترحاب إن زاروه في المنزل.

* * *

حصلت على التفوق على أقراني في عدد من المواد:

الحساب والعربية والرياضة التي كنت أعشقها. لكنني أهاب من الحركة الكثيرة أمام زملاء. وفي المواد الأخرى كانت درجاتي جيدة. شجعتني سامية أن أكون الأول على تلاميذ صفي. حين استطعت أن أنفذ طلبها رأيتها في قمة السعادة. شعرت دائماً أنها أُمي وأنها تبذل قصارى جهدها كي تسعدني وتنسيني المأساة التي استشهد على إثرها كل أفراد أسرتي. سامية تجاوزت شعورها بالألم والفقدان بعد استشهاد زوجها وموت طفلها قبل أن يرى نور الحياة، وموت أمها بسبب الحزن ووجع فقدان الأحبة.

جدي كان قوياً دائماً يحاول أن ينسى الفواجع التي مرت به وأنهكته. وكثيراً ما أسمع الحوار بين جدي والحبيرة سامية:

- مضى العمر سريعاً يا ابنتي!

- أنت فُدتنا يا أبي، من لي في الحياة سواك؟

- أنت فلذة كبدي وعمرى الذي أحرص على نصاعته.

- أراك حزيناً.

- أتذكر إخوتك الذين اغتال الظلم شبابهم، وأمك التي لم تعد قادرة على تجاوز ألم حرمانها من أولادها... فودعت حياتها، وتعتبر شهيدة أيضاً.

- وجدي أيضاً.

- أبي أيضاً، لم يرحموا شيخوخته، واغتالوا كل أصدقائه وأقربائه والمعارف أيضاً. أشعر بالإثم لأنني لم أستطع إنقاذه!

- كيف تنقذه يا أبي وأنت بعيد؟ حتى لو كنت معه لا اغتالك الظالمون معه.

- أهذا قدرنا يا ابنتي؟

- ليس قدرنا. إن غابت الشمس أياماً، سوف تشرق من جديد.

- يسعدني تفاؤلك.

- لولا التفاؤل لما استطعت الحياة يا أبي.

- نعم، معك حق. لولا الأمل لكانت الحياة شديدة الظلام!

- لهذا يضحى الناس ويناضلون من أجل حياة أفضل.

- وهل يمكن التخلص من الظلم؟

- ليس نهائياً، لكن درجات الظلم تختلف بين حالة وأخرى.

* * *

تسعدين بوصولك إلى النجاح الذي تتمنين. أنت وفيه، تتميزين بحب العمل والإجادة فيه. تبدعين في الرسم، وتجدين سعادتك في التعبير عن نفسك باللوحات التي تبدعين. ولكن رغم تحقيقك للنجاح، ما زال فقد الأحبة يضايقك. أمك لم تستطع البقاء في دنيا تخلو من أبنائها الأعزاء. تعبتي في تربيتهم وإيصالهم إلى سن الشباب، وقبل أن تجد الفرحة طريقها إلى قلبها الظامئ، سارعت قوى الطغيان إلى اغتيال زهرة الشباب. وبدلاً من أن تكحل الحياة عيونها بنجاحاتهم، افترس الموت حيواتهم، واغتيال الردى عمرهم الغض. تسارعين في تسجيل ابنك ليث في المدرسة التي تطمحين أن تحقق له ولك الأحلام في غد سعيد. افترس الموت جنينك قبل أن يخرج إلى تعاسة العالم، وعوضك الله بآبن آخر سوف تربينه على يديك، وتنشئينه وفق ما تحبين من مكارم الأخلاق وسمو المبادئ، ليشب شاباً قوياً حنوناً ومقدماً، وليس ميالاً للكلمة التي تقتل النفوس وتعتل القلوب. لقد توهمت أنك أحببت نصيراً، ولكنه

بكلماته السيئة قد عمل على قتل ما تحملين من حب له وأنتما في الشهور الأولى من زواجكما التعتيس. تحاولين أن تنسي ما عشته من مرارة وما تذوقته من علقم، ولكن الأيام ما فتئت تذكرك تلك الكلمات الجارحة التي بدرت عنه. ربما لم يشعر بفظاظتها وأنها كفيلة بقتلك. كيف يمكن لك أن تنسي وأنتما في الشهر الأول وقد قال لك:

- سهام حبيبتني!

- هل أنا سهام؟ هل نسيت اسمي؟ ونحن في الشهر الأول من زواجنا؟

- كم تحبين النكد! ماذا يجري إن ناديتك باسم آخر؟ ألا تدركين معنى أن أكون معك ولست مع سهام.. ماذا يضريك إن لفظت اسمها وقد عشت معك بدلاً عنها؟

تصيبك الحيرة. كيف تتصرفين؟ هل تقومين من تحته؟ أم تواصلين مشاركته في الفعل وهو يوجه لك طعنته النجلاء، ويردي قلبك قتيلاً؟ أنت تفكرين بغيرك دائماً. تخشين إن قمت من تحته أن تتسببي في جرح نفسه وتوجيه طعنة إلى قلبه. ولكن هل كان يملك قلباً وهو يوجه لك سهام العذر والخيانة؟ لماذا جاءك أنت ممثلاً دور الحبيب ولم يذهب إلى سهامه الطائشة؟ هل اعترف بحبه لها ورفضته؟ فهو الفقير المعدم والعصبي ذو العبارات الخسنة التي لا تحترم أحداً. وهل كان يتلفظ بجراح الألفاظ مع صديقاته أيضاً كما كان يفعل معك؟ قتل اشتياقك له، وشعورك بالنشوة التي تعيشها من تحب زوجها. صرت تشعرين أنه يقوم باغتصابك. أه لو كنت قادرة على التعبير عن رفضك له. ما بالك؟ الاهتمام بالآخر رغم أنه لا يبالي بمشاعرنا هو ألد أعداء الإنسان. فلماذا أنت بهذا الضعف؟ فلتطردى الأفكار القاتلة إن أتت إليك. من حقك أن

تفرحي بعد أن ابتسمت لك الدنيا بعد عبوس متواصل. لقد
حققت بعض ما تحبين. فلتجعلي ما يسيء للنفس بعيداً. كوني
قوية كما ينصحك أبوك المحب:

- ابنتي الحبيبة كوني قوية واطردي أفكار السوء.

تصممين أن تنفذي الحكمة التي يقدمها لك أبوك الحنون:

- إن أردنا أن نصنع الأفراح علينا أن نند الأحران!

تهتمين بليث وبدروسه ومدرسته والمعلمات اللاتي يحرصن
على تعليمه. تراجعين معه الدروس، وتعلمينه ما غمض منها،
وتحاولين أن تذليلي له الصعاب. تقومين بشرح كيفية أداء
تمارين الرياضيات له، وكيف يجب أن يهتم بقواعد اللغة
العربية. تجعلينه يحفظ جدول الضرب قبل أن تشرح له معلمة
الرياضيات ذلك الجدول. تساعدن ليث أن يكون الأول على
صفه، وتتجحين.

* * *

أتعرف إلى أصدقاء جدد يزورونني في منزل والد سامية،
وأزورهم في بيوتهم. أعرف أنني أعيش في منزل أبي سامية،
رغم أنهما يعاملانني وكأنني ابن لهما وحفيد. لم أشعر معهما
باليتم ولا أنني أفتقد بعض الأمور، لأن أبي وأمي قد قتلا بأيدي
ناقمة عليهما لحبهما الجمال والحرية وكل شيء عزيز على
نفس الإنسان.

أنتمي إلى فريق كرة القدم وإلى مجموعة الرسم في
مدرستي، لأنني تعلمت من سامية كيف يمكنني التعبير عن
المعاني الجميلة بالرسم، كما أحسنت التعبير عن نفسي وعن
الأفكار التي اقتنع بصحتها بواسطة القلم.

تصل نتيجة المقابلة إلى سامية في ظرف مغلق إلى بريد الشقة التي يسكنها في عمارة كبيرة في مدينة السالمية. تذهب سامية إلى وزارة التربية وتطلب تعيينها في مدرسة قريبة من مسكنها. توافق الوزارة على طلبها، ويصدر أمر تعيينها مدرسة على ملاك المدارس الثانوية في مدرسة نموذجية من ثانويات الكويت للبنات. تتميز بالمستوى العلمي المتميز، وتنافس الطالبات للحصول على الدرجات التي تؤهلهن لأرقى الجامعات.

أجد سامية تنظم وقتها بين أشغال المنزل والتعليم وبين هوايتها في فن الرسم. تبدع في رسم اللوحات التي تنال إعجاب المتلقين في المعارض الشخصية والمشاركة التي تقام. الجد يساعد سامية في الاهتمام بالمنزل وإعداد بعض أصناف الطعام. لكن صحته أخذت تزداد سوءاً في الأيام الأخيرة، ولم تعد سامية توافق على أن يتعب نفسه في أعمال البيت وتجهيز الطعام.

ثلاثتنا اكتسبنا الصداقات المتعددة في دولة الكويت. أنا فزت بعدد من الأصدقاء في المدرسة ومن خارجها يشاركوني الاهتمامات نفسها في حب الدراسة والمطالعة وكرة القدم والرسم والموسيقى. الجد حصل على صداقات كثيرة لرجال كبار في السن يهتمون بالسياسة والأدب. سامية لديها صداقات من كلا الجنسين: فنانيين وأدباء ومهتمين بالاكتشافات العلمية التي تسعى لجعل حياة الناس أكثر راحة وسعادة.

الدكتور خليل العبيدي من أصدقاء سامية منذ أن كانت في الجامعة. تخصص في لندن في طب العيون، وجاء إلى الكويت قبل مجيء سامية. أحب سامية منذ أن كانت طالبة في أكاديمية الفنون، وصرح لسامية بحبه ورغبته بالاقتران بها. إلا أنها

تزوجت من نصير، ولم يغير زواجها من عاطفته الكبيرة نحوها. بقي عاشقاً لها وصديقاً يقف بجانبها مؤازراً إن تعرضت لمكروه، وكان قادراً على صده. وبقي الدكتور خليل عازباً.. نجلاء محمد إحدى صديقات سامية الحميمات، أرادت أن تدرس للدكتوراه حين كانت في بغداد، ولكنها لم تكن ضمن الحزب الوحيد الذي يسمح لأعضائه بإكمال الدراسة. فسافرت نجلاء محمد إلى باريس لتحصل على الدكتوراه في فن الرسم. مجموعة من الصداقات المميزة ذكوراً وإناثاً، تفخر سامية بالتعرف على أفرادها الذين بقوا مخلصين لصداقاتهم مهما كلفتهم من تضحيات.

* * *

ليث الحبيب يكسب وجودك معنى جميلاً. ترينه ينمو وتزداد معارفه ويمهر في دراسته وينتمي إلى جمعيات يتبادل مع أعضائها الاهتمامات. يشارك جمعية هواة الرسم أنشطتها الفنية المتعددة. يحاول أن ينمي لديه موهبة الرسم بعد أن لاحظت عنده هذه الموهبة، وحرصت على تقويتها بمواصلة التمارين على إجادة هذا الفن الجميل. كما أنك لاحظت وبفرح حب ليث للرياضة، فجعلته يشارك فريق كرة القدم مهارتهم وتمارينهم. تفرحين إن وجدت ليث سعيداً. يزوره أصدقاؤه في البيت، ويذهب إلى أولئك الأصدقاء لزيارتهم في بيوتهم. وجدته الابن الحبيب الذي عوضك الله بوجوده بجانبك ما حرمت منه، وأنساك كثيراً من أنواع الطعنات التي منيت بها في حياتك القصيرة.

أصدقاؤك كثيرون ذكوراً وإناثاً تجدنيهم قريبا. يضيفون الدفء إلى حياتك التي كانت جديبة، ويبهجونك. خليل العبيدي

الدكتور الماهر الذي شعرت بنبضات قلبه قبل أن يحدثك بها. فهل يمكن لنبضات القلب وخفقاته أن يخفيها المرء؟ حتى وإن جهد لذلك الإخفاء. اخترت نصيراً من بين عشرات العشاق، وبعد أن فشلت في تجربة الحب، وبدا من نصير ما كان مخبوءاً، تساءلت وأنت تهمسين لنفسك:

- عجبي للحب! لماذا لم تختاري يا سامية الرجل الذي أحبك أكثر من أي رجل آخر؟

وتجيبين نفسك عن استفساراتها:

- هل الحب طوعي؟ وهل بإمكاننا أن نختار من نحب؟ أم أنه كالقدر يصطفي الناس ليعذب بعضاً منهم ويسعد آخرين؟ هل الحب مرض مزمن؟ فلماذا تجدين نفسك تتذكرين من سبب لك الآلام وتنسين من يحب ملء القلب والروح ويتمنى أن تبادليه الشعور ليحيا؟

-

أبوك الحبيب الذي أثخن الدهر جراحاته، وجعله وحيداً يعيش بين الأحبة الراحلين الذين اغتالهم الطغيان دون أن يرتكبوا إثماً يستحقون أن يعاقبوا عليه. أي منطق تعيشون به، وأي جريرة قمتم بها؟ ليحكم عليكم أن تكونوا غرباء بعيدين عن الوطن الحبيب؟

ستحمدين الله ألف مرة أنك لم تعودتي وحيدة في هذا العالم. قربك أبوك الحنون ذو الإرادة القوية، والرجل الرجل كما يسميه أعداؤه والأصدقاء. معك في دولة الكويت الشقيقة عدد من الأصدقاء، وبعضهم بعيدون عنك جسداً، قريبون منك روحاً. معك الدكتور خليل العبيدي، الإنسان الذي تجدينه يقف بقربك مدافعاً عنك ضد من يفكر بك سوءاً، ومذلاً لك

الصعاب. وقربك ليث المخلوق اليتيم الذي أنقذته من الهلاك وأتيت به إلى هنا وأنت تمنعين عنه كل صنوف الحرمان، لينشأ إنساناً قوياً واثقاً، يتطلع إلى الدنيا بفرح وتفاؤل.

* * *

يصدر قرار تعيين سامية في ثانوية (الأمل) القريبة من منزلها. تجد أن الثانوية رائعة جداً في مستواها العلمي والأدبي والفني. تدرس الطالبات ثلاث لغات، يتفوقن في العربية والإنجليزية والفرنسية. إدارة المدرسة تجمع بين حنان الأم وحزم المربية الحريصة على بناتها. تساهم الثانوية في المسابقات التي تقيمها الوزارة لتطوير مهارات الطالبات وجعلهن بارعات في التعبير عن أنفسهن كتابياً وشفهياً. ومر على عملها في التدريس خمسة أشهر، لم تتسلم عنها راتباً شهرياً. لم يجعلها ذلك تفقد الفرح وتتشاءم. كان أبوها يعطيها ما تحتاجه من نقود لشراء ما يلزم لي ولها. كانت شهادة التخرج التي حصلت عليها من أكاديمية الفنون تحتاج إلى توقيع وزارة الخارجية وسفارة بلادها في الكويت. قال لها أبوها:

- سوف تستلمين راتبك أسوة بزميلاتك في نهاية العام الدراسي!

- ومن أدراك يا أبي؟

- أنت أستاذة للفنون، وأصدقائك يجيدون الرسم.

تمر الأيام وسامية لا تستلم راتبها الشهري. سألتها يوماً:

- ماذا ستفعلين؟

- شهادتي معترف بها من رئاسة الأكاديمية، وأنا قد درست

مادة الرسم والنحت فترة طويلة تمتد أربعة أعوام كاملة،
ودرجاتي مرتفعة!

- لم أفهم.

- سوف أستشير أصدقائي الفنانين لنجد حلاً!

- لم أفهم أيضاً!

تتحسن الحالة النفسية لسامية بعد هذه المحادثة. أراها
مستبشرة أن حرمانها من الراتب سوف لن يستمر طويلاً،
وأنها تحب عملها وتخلص في مهنتها، ومن حقها أن تحصل
على نتيجة التعب ومكافأة الإخلاص.

قبل نهاية العام الدراسي بثلاثة أشهر، تصل سامية إلى
المنزل فرحة، تكاد أن ترقص من شدة السرور:

- تعبي أنمر راتباً كبيراً!

- ماذا حصل؟

- استلمت مبلغاً كبيراً وهو راتبي للشهور الخمسة التي لم
أعط فيها نقوداً!

- كيف؟

- سأقيم احتفالاً كبيراً أدعو إليه الأصدقاء ونستمع فيه إلى
أجمل الألحان بهذا الحدث السعيد!

- لم أفهم!

- نحن فنانون يا حبيبي ليث، ونجيد التواقيع!

تقيم سامية ويقف بجانبها والدها احتفالاً كبيراً بمناسبة
استلامها أول راتب لها. تأخر طويلاً استلامها نتيجة عملها
الجاد والدؤوب. تدعو أصدقاءها الكثيرين الموجودين في

الكويت، وتستمتع إلى تهانيمهم الجميلة وهي فرحة تكاد ترقص
طرباً واغتناباً.

* * *

كنت تودين أن تشتغلي في ثانوية الأمل للبنات في دولة
الكويت. سمعت أن المدرسة رائعة جداً في كل الميادين، وأن
طالبتها يحرن أعلى الدرجات في امتحانات الشهادة الثانوية
كل عام، وأن مديرتها كانت معروفة بكرم الخلق والمهارة في
قيادة طالبتها نحو العلا. حريصة أن تتبوأ الثانوية المكانة التي
تستحقها. سألوك حين تمت مقابلتك:

- أين تفضلين أن تشتغلي؟ متوسطة للبنات أم ثانوية؟

- أفضل الثانوية.... طالباتها قريبات من نفسي، يعرفن ما
يردن من الحياة، ويقبلن على التدريب على آيات الأدب والفن
برغبة وحماس.

لم تطل بك الأيام ولم تجري الصبر العسير. بعد أيام من
المقابلة كانت البشرية:

- مبارك لك التعيين في الثانوية التي ترغبين بها!

فرحتك كبيرة وشعورك بالفوز رائع الجمال. كنت تسمعين
أخبار ثانوية الأمل من صديقاتك. مديرتها الأستاذة خديجة
كانت صديقة للمدرسات اللاتي يحرصن على مستوى المدرسة
العلمي والأدبي والفني. طالما رأيت أن التفوق لا يمكن أن
يتجزأ، وأن من يسعى لنيل التفوق في المجال العلمي لا يرضيه
أن يتدنى مستواه في الآداب. كل مجالات الدراسة حرصت
عليها الست خديجة. كما كانت تحب أن تتفوق طالباتها في
اللغات الثلاث التي تقررهما وزارة التربية. طالباتها المجتهדות

حريصات على اكتساب اللغة القوية والقدرة على الترجمة الفنية من لغة إلى أخرى.. وأنت تحبين الموسيقى، وكثيراً ما تطلعت أن تتمكني من العزف على الآلة التي تحبينها. سررت كثيراً حين سألت الأستاذة خديجة:

- هل يمكن للمدرسات أن يتدربن على العزف على البيانو الموجود في غرفة الموسيقى؟

- في حصص الفراغ تستطيعين أن تتدربي على آلة البيانو. كما أن لأستاذ الموسيقى عوداً، يمكنك أن تطلبي منه أن يدربك على العزف عليه.

- كيف عرفت أنني أحب تعلم العزف على العود؟

- أعرف أن العود حبيب العراقيين!

فرحة التعيين تظل ناقصة لبعض الوقت. راتبك الكبير نسبياً لم يسلموك إياه في الشهور الأولى من تعيينك. بقيت تنتظرين أن تحسلي على بغيتك من النقود. وكان أبوك كالعهد به يضع النقود التي تحتاجينها في يدك آخر كل شهر:

- لن يتأخروا في دفع الراتب.

- ماذا تعني يا والدي؟

- أنت فنانة تجيد الرسم، وتعبر عن مشاعر الإنسان وتطلعاته، وتجيد الخط أيضاً!

أبوك مقتنع أن حرمانك من الراتب لن يطول. يسألك أصدقاؤك بين فترة وأخرى:

- هل وصل لك راتبك؟

- لا.

- سوف نجد حلاً.... أنت صديقتنا العزيزة.

يجتمع الأصدقاء ويقررون مساعدتك في أن تستلمي راتبك. ويعدون أن يطلبوا منك صورة من شهادة التخرج. يسلمونك الوثيقة نفسها:

- أعطي هذه الوثيقة المصدقة إلى وزارة التربية!

تفعلين ما يطلب منك. وقبل أن تحل نهاية العام الدراسي بثلاثة أشهر، تستلمين مبلغاً كبيراً هو راتب خمسة أشهر كاملة:

- من حقي الآن أن أحتفل بهذا الفوز المبين!

* * *

جواز السفر لسامية يحتاج إلى تبديل. لم تراجع سفارة العراق في الكويت منذ فترة طويلة. تخشى إن فعلت لتجديد الجواز أن يسألوها ما علاقتها بالفنانين العراقيين الكبار الذين اضطروا إلى مغادرة الوطن والعيش في الكويت والمشاركة في الأنشطة الثقافية التي تسعى لتغيير سياسة نظام الحكم في العراق نحو الجيران والأصدقاء. سامية ليست سياسية، ولكنها تحب وتصادق الأدباء والفنانين الذين لهم مواقف واضحة ضد الدكتاتورية وسياسة تكميم الأفواه التي تنتهجها الحكومة. لا يأتي لمعارض سامية الفنية إلا القليلون من أقطاب السفارة. أصابها القلق واستبدت بها الحيرة. ماذا ستفعل؟ نصحتها الجد:

- راجعي يا ابنتي سفارة بلدك.

- أخاف أن يوجه لي اتهام لأن أصدقائي خليل العبيدي وسمير الركابي وغيرهما من مناوئي النظام.

- أنت فنانة معروفة بحبها لبلادها، ولست سياسية، فلن

تجدي منهم موقفاً معادياً لك.

تقتنع سامية برأي أبيها الذي جرب الحياة وتذهب إلى السفارة. يجعلونها تنتظر فترة بدت لها طويلة وهي نهب المخاوف. ثم يسمح لها بمقابلة القنصل:

- مرحباً بك أيتها الفنانة القديرة.

- أريد أن أجدد جواز سفري!

- من حقك سيدتي، ولكنني عاتب عليك!

- لماذا؟

- لأنك لم تحضري أي احتفال في المناسبات التي تقوم بها
سفارة بلدك لتعريف العالم عن بلادك!

- أنا أدافع عن وطني العراق بفني ولوحاتي التي أعرضها
في المعارض الفنية المتعددة، فيعرف الناس ما يجري في
البلاد!

- ولكن بعضاً من أصدقائك يقفون موقف المعادي!

- لا أعرف أحداً يعادي العراق!

- أنصحهم ألا يكونوا ضد حكومة بلادهم.

- لا أملك هذه القدرة!

- ستكونين ضد بلدك أيضاً.

- كل رسوماتي توضح أنني أعبر عن العراق!

- نعم سيدتي.

- وما الخطأ الذي ارتكبته؟

- لم ترتكبي أي خطأ، أنت فنانة معروفة نكن لك احتراماً

كبيراً. لم تقومي بزيارتنا إلا لتجديد جوازك. أصدقاؤك الفنانون في مختلف العالم لا يحبوننا. لا نسألك عنهم، أنت لا تحملين لنا العداء. كم يمكنك أن تدفعي للمجهود الحربي؟

- لتدفع سامية ما تجده مناسباً. تستلم جوازاً صالحاً للسفر مدة ثماني سنوات تمدد فترة الصلاحية بعد أربع سنوات.

تستمر بك الأيام، وأنت تعملين في ثانوية الأمل للبنات، حيث الإدارة الحكيمة، والمدرسات الصديقات لك. إن وجدنا شيئاً يسيء لك كشفناه أمامك بصدق. كان الموجهون الفنيون يترددون على ثانويتك الحبيبة، ويطلعون على مرسمك. يعجبون بالقدرة التي تملكينها حين حولت الطالبات الذكيات المجتهديات في الدروس العلمية والأدبية إلى محبات للفن، حريصات على الإجابة بالتعبير الفني عن كل شيء، كما يبرعن في التعبير الكتابي عن مشاعرهن وأفكارهن. مرسمك اشتهر في دولة الكويت. الموجهون الفنيون أخبروك:

- بودنا أن نخبرك أن مرسمك يعتبر من قبل نقاد الفن ومتابعيه من أفضل المراسم.

- على سعيد التعليم العام أم الخاص؟

- على سعيد التعليم الخاص. لكل من التعليمين نقاد ومريدون ومتلقون.

تفرحين لما ينقله لك الموجهون من أخبار المدارس الخاصة في الكويت وكيف يحرص الأساتذة أن يكون طلابهم من أوائل الطلاب في حب الفن والإبداع فيه. مديرتك تعاملتك بتقدير واحترام. طلبت منك أن تكوني المدرسة الأولى في مادة الرسم

في ثانوية الأمل لما شهدته منك من حرص على التدريس وجودة في تمرين الطالبات وحثهن على الإجابة. تقومين بالمعارض الشخصية، وتعرض لوحاتك ويقبل عليها عشاق فن الرسم من الكويتيين والعرب. ولكن يحز في نفسك أن من يشتغل في سفارة بلدك قليل حضورهم إلى المعارض التي تقيمونها. وحين تكون المعارض مشتركة بينك وبين عدد من الفنانين من إحدى الدول العربية أو الأجنبية، يكون حضور أعضاء السفارة ملفتاً وكثيفاً. أمضك هذا الأمر وإن لم تبوحي به لأحد إلا والدك:

- أمر طبيعي ما تجدينه ابنتي.

- لماذا يا أبي؟ وأنا فنانة معروفة، أفخر ببلدي العراق وأدافع عنه بفني؟

- إنهم أكرمك يا ابنتي، زاروا معارضك وإن لم تكن زياراتهم كما تأملين.

تصمتين، فأنت تعرفين أنهم لم يوجهوا لك انتقاداً، لأنك فنانة ولا تعبر رسوماتك عن رأيك مباشرة. فإن أصدقاءك من الأدباء والفنانين قد لا يستطيعون أن يبتعدوا عن الصراحة كما تستطيعين أنت.

جواز سفرك انتهى مفعوله منذ فترة، وتريدين أن تجدديه. فأنت تحبين السفر ومشاهدة جمال العالم والتعرف على البلدان المختلفة. تعرفت إلى عدد من البلدان في كل القارات، ولك أصدقاء عراقيون غادروا العراق إلى مختلف البلدان، وأقاموا حيث وجدوا الراحة والاطمئنان. أصدقاؤك معروفون بمواقفهم السياسية المعارضة لنظام الحكم في العراق، وإن كانوا يحملون قلوباً ملأى بحب الوطن، حريصون على الدفاع عن كرامته وجماله. تخشين أن تذهبي إلى السفارة ولا يجددون لك جواز

السفر. فقد أعدم شقيقاك، والمسؤولون يعرفون أن شقيقك أعدما وأنت تحبينهما. ولكن ماذا يمكنك أن تفعلي؟ تقررين أن تندي الخوف في داخلك وأن تقمعي التردد. تذهبين إلى سفارة بلدك الحبيب:

- مرحباً بك أيتها الفنانة الكبيرة!

- شكراً لكم.

- نحن نعتب عليك.

- لماذا؟

- أصدقائك يعادون العراق وأنت لا تقومين بالدفاع عن وطنك. نعرف أنك مواطنة صالحة اضطرت لمغادرة البلاد. يمكنك أن توصلي صوتك المدافع عن الوطن إلى كل العالم. تخرجين من السفارة حاملة جوازك الجديد، وأنت تتساءلين بصمت:

- كيف أكافح الظلم وأنتم تروجون للظالمين؟

* * *

تبدع سامية في مهنة التعليم وتنجح في تدريب طالباتها على رسم البورتريهات المعبرة عن سمات الشخصية وهمومها. كما تبرع في جعل طالباتها يتفوقن في رسم اللوحات الفنية التي تعبر عن أفراح الإنسان وأتراحه. ورغم أنها ليست في أرض الوطن، إلا أنها دربت طالباتها على الإبداع في رسم بلاد ساحرة الجمال اسمها العراق، يهواها الإنسان ويتوق إلى ربوعها. اختارت مديرة ثانوية الأمل سامية لتكون المدرسة الأولى في مادة الرسم، فأجادت الأستاذة الأولى في مهمتها

الجديدة. قالت لها المديرة:

- وصلتنا كتب رسمية من وزارة التربية تثني على مهارتك في جعل الطالبات يحببن مادة الرسم ويتفوقن على زميلاتهن في الثانويات الأخرى.

- يسعدني تقييمكم أستاذتي!

- وسوف تجري وزارة التربية مسابقة كبيرة للمدارس الثانوية في عموم البلاد في مادة الرسم والنحت.

- سوف أدرب طالباتي لاجتياز هذه المسابقة بنجاح وتفوق.

- هذا عهدنا بك!

تقوم سامية بالعمل المتواصل أثناء الدروس الفنية وفي أوقات الفراغ التي ترتاح فيها المدرسات. تقوم سامية بتدريب الطالبات اللاتي تجد عندهن محبة كبيرة وقدرة على الإجابة، وتواصل تدريبهن حتى تأتي ساعة الاختبار التي تشعر فيها سامية بدقات قلبها تتزايد وقلقها يتضخم. تعود الطالبات فرحات وقد استطعن رسم ما طلبت منهن اللجنة المشرفة على الاختبار، والفرح يعلو وجههن:

- كيف حالكن؟

- كل الأسئلة أجبنا عنها!

- ممتاز جداً، والنتيجة؟

- ستصل إلى ثانوية الأمل بعد أيام.

تنتظر سامية أربعة أيام، تجدها شديدة الطول. تدخل عليها الأستاذة خديجة مديرة ثانوية الأمل والفرح باد عليها بوضوح:

- مبارك لنا، ثانوية الأمل هي الثالثة على ثانويات الكويت

بالمسابقة الفنية.

- يا لفرحتي!

- كلنا فرحات، سوف نقيم احتفالاً كبيراً بهذه المناسبة السعيدة... ستقدم إدارة المدرسة هدايا ذهبية للطالبات اللاتي أحرزن التفوق ولأستاذتهن الرائعة التي هي أنت.

نجاحك يتواصل، وفرحك يكبر. فرغم أن المدة التي مرت عليك في ثانوية الأمل قصيرة، إلا أنك استطعت أن تحققي منجزات كبيرة في دنيا التربية والفن. أصبحت طالباتك بفضل تدريباتك لهن يقبلن على مادة الرسم ويتفوقن فيها. كنت تحثيهن على التفوق في كل الدروس. كل المواد ضروري إجادتها، والمهارة فيها. ليس من المناسب أن يبرع الإنسان في الفن ويبدع فيه، وهو لا يعلم شيئاً عن آداب اللغات العربية والإنجليزية والفرنسية التي يتم تعليمها في ثانوية الأمل النموذجية للبنات. وليس جيداً أن تمهر الطالبة في التدريبات على الطبخ وتجهيز الآداب والفنون، وهي جاهلة بمبادئ العلوم، ولا تعرف شيئاً عن الرياضيات والفيزياء وعلوم الأحياء. كنت ترددين كلامك المأثور والطالبات يؤمن بما تقولين:

- استفدن من الفرص المتاحة أمامكن حبيباتي. اقبلن على الرياضة واستفدن من الآلات الرياضية الموجودة في قاعة الرياضة في ثانويتكن العزيزة.

- الرياضة تقوي البدن والروح أستاذتي.

- نعم عزيزتي سهام، في مدرستكن قاعتان للرياضة،

إحداهما صيفية. فإذا ما أقبل الشتاء وهبط المطر وتعذر أداء التمارين الرياضية في القاعة الصيفية، أخذتكن أستاذة الرياضة إلى القاعة الشتوية.

- هل يوجد مثل مدرستنا في العراق أستاذتي؟

- تعلمت أنا في إحدى الثانويات الممتازة في بغداد. كنا نتمتع بالمرسم وقاعتي الرياضة والمطبخ، حيث تبرع الطالبة في تجهيز وجبات الطعام. كانت مديرة مدرستنا تؤمن أن الإنسان يجب أن يتعلم كل شيء، وأن تدبير المنزل والتسوق والطبخ يجب أن يدرّب عليها الطلاب أيضاً، ولا يقتصر الأمر على الطالبات. فما دامت المرأة تنفق على المنزل وتساعد الرجل، عليه أيضاً أن يساعدها في مهمات البيت والأسرة.

تواصلين حث الطالبات على التفوق في كل الميادين، وأن يساعدن أمهاتهن في أعمال المنزل. فقد تعبت الأمهات، ومن الإنصاف أن نمد لهن يد المساعدة. تسألك إحدى الطالبات:

- والآباء كيف نساعدهم؟

- الآباء يفرحون حين يحرز أبنائهم التفوق، ويكتسبون الخلق الرفيع ولا يقولون إلا الكلمة اللينة. ومهما كان الاختلاف في وجهات النظر، على كل امرئ أن يكون لطيفاً في عرض وجهة نظره. حين يتخرج الطالب ويجد له العمل الذي يتناسب مع قدرته وميوله، ويكسب راتبه، يمكن أن يمد يد المساعدة للأب وللأسرة، فيساهم في تحسين الظروف الاقتصادية... إن هناك مسابقة أعلنتها وزارة التربية لطالبات الفنون في المدارس الثانوية.

تخبرك مديرتك عن رغبة الوزارة في معرفة مدى قدرة الطالبات على التعبير عن أفراحهن وأحزانهن في لوحات فنية:

- هل المسابقة لكل مدارس الكويت؟
- إنها لمدارس التعليم الخاص فقط. هل بإمكانك أن تجعلي ثانويتنا تفوز في هذه المسابقة؟

- سأبذل كل جهودي من أجل الوصول إلى الفوز.
تواصلين العمل. تدربين طالباتك لإجادة فن الرسم. تحثيهن على المهارة. تقبل الطالبات على تدريباتك بفرح طاغ. يتطلعن إلى الفوز وأن تحصل المدرسة على النتائج الجميلة. في اليوم المحدد، تذهبين مع طالباتك إلى مكان المسابقة، ومعهن اللوحات التي تجدين أنها تعبر عن المعاني المطلوبة:
- كيف كانت إجاباتكن؟

- أجبنا عن كل الأسئلة، ورسمنا اللوحات التي طلبوها.
- والنتيجة متى تعلن؟
- بعد أربعة أيام.

تنتظرين على أحر من الجمر. تنتهي الأربعة أيام، تأتيك مديرتك فرحة:

- مبارك لنا ولك، مدرستنا حصلت على المركز الثالث..
جهزي طالباتك، سوف نقيم احتفالاً بالمناسبة السعيدة..
ستحضر لجنة من التعليم الخاص في وزارة التربية، وسيتم تكريم كل من ساهم في أن تعلو منزلة ثانويتنا.

تسوء صحة والد سامية. أصدقاؤه لا يتركونه وحيداً. مرض الحنين يلزمه. فقد الكثير من أحبته ولم يعد قادراً على أن يكون محروماً من وجودهم بقربه. تحمل إعدام أبيه الشيخ

الكبير الطاعن في السن، والذي لم يشفع له كبر سنه أن يغتاله الجناة بدم بارد. ولكن الجد تفاقت عليه الأوجاع حين غاب ولداه الاثنان دون عودة. انتظر كثيراً أن يرجعا إلى أحضان أسرته المحبة وأبيه الحنون وأمه الرؤوم. ولكن الانتظار الطويل لم يفلح في إيجاد حل للمعضلة الكبيرة التي تعاني منها الأسر العراقية نتيجة فقدان الأحبة.

عادل وطالب شقيقا سامية غابا عن المنزل بعد إعدام جدهما، وغاب العديد من شباب المنطقة التي يسكنون فيها. عاد بعض الشباب المفقودين وقد شوّهت أجسادهم ووجوههم التعذيب القاسي الذي تلقوه. وانتظر والد سامية أن يعود عادل وطالب إلى منزلهما، وطال الانتظار. سمع بعد فترة أن طالب قد تم تنفيذ الإعدام بحقه، ولم يستطع أن يستلم جثمانه. وكان يأمل أن يعرف مصير عادل وماذا حصل له؟ ولماذا طال غيابه وما هي الأسباب للغياب؟ وكان الابن الغائب معروفاً ببعده عن السياسة وهمومها. لكنه الانتقام من أسرة كبيرة عرفت ببعده الضيم ومكافحة الظلم، والنضال من أجل الحرية.

تسمع سامية من بعض معارفها أن شقيقها عادل قد أعدم أيضاً في نفس اللحظة التي تمت فيها تصفية الشقيق طالب. خشيت أن تخبر أباهما بالنبأ الفاجع حرصاً على صحته. لكن والدها قد عرف من بعض أصدقائه بالخبر، فجاء معاتباً سامية:

- كنت تعرفين أن شقيقك عادل قد أعدم أيضاً؟ ولم تخبريني.

- سمعت في وقت متأخر من مصادر ليست مؤكدة!

- ولداي الاثنان أعدموا في نفس اللحظة!

- يا لقسوتهم! ما أفزع الظلم!

لا تكفي كل الكلمات أن تخفف من الألم الذي يعاني منه

الجد. أخذت حالته تسوء. يشعر ببرودة شديدة. يقف لساعات طويلة أمام المدفأة في وقت الربيع، والصقيع القاسي يطحن عظامه. ولم يعد قادراً على تناول الطعام. قال لنا طبيبه:

- أبو عادل مصاب بمرض فقدان الحنان!

- ما طبيعة هذا المرض؟

- إنه مرض قاسي يصيب من فقدوا أحببتهم نتيجة الظلم.

- ماذا تعني؟

- إننا شعب مؤمن بقدرة الله وأن الموت حق. ولكن أن يسلب الظالمون حيوات أحبائنا فنصاب بالعجز وعدم القدرة على الحياة، لأن المصاب يعجز عن رؤية الجانب المضيء من الحياة.

- وكيف يكون للحياة جانب مضيء؟ والإنسان محروم من الأوبة.

سامية يستبد بها الألم لحالة أبيها السيئة. تحاول أن تخفف عنه أوجاع الشعور بالفقدان والحرمان من حنان الأوبة. لكن محاولاتها العديدة تذهب عبثاً. فقد استوطنت الأحزان في قلب أبيها وعقله منذ زمن طويل. منذ أن كان شاباً ممتلئاً بالحيوية يدرك أن النضال يحقق الآمال ويوصل إلى الغايات. ولكن النكبات الكثيرة قد أدمت قلب الجد، وثلمت عزيمته، وتركته رجلاً مثخن الجراح، فقد الأبناء والأوبة.

أبوك الحنون الرؤوف، والذي يغبطك معارفك على علاقته الجميلة بك، فلم يسمعك غليظ القول طوال عمره، كان الناصح

والصديق، يناقشك حين يصعب عليك فهم أمر من الأمور، ويحاول إفهامك أن اختلاف الرأي لا يفسد الود. المهم في علاقاتنا الاجتماعية أن نقدر الآخر ونكن له الحب الذي يستحقه:

- علينا أن نحب الناس قبل أن نطالبهم بحبنا.
- وكيف نحبهم إن لم يبادلونا العاطفة نفسها؟
- الناس طيبون، وهناك أسباب تضطرم للظهور على النقيض من طبيعتهم المسالمة، والميالة للهدوء.
- تحبين أباك فهو قُدوتك، في صغرك كنت تقلدينه، وحين كبرت قليلاً، اتضح لك أن التقليد ليس مناسباً، وأنه من الأفضل للمرء أن يكون على طبيعته، ويصقل تلك الطبيعة كي تكون أجمل. أحب أبوك أفراد أسرته حباً ملك عليه نفسه، لكن إعدام جدك الطاعن في السن، بلا سبب سوى أنه شجاع ويبيدي رأيه بكل حدث بصراحة، جاءت سيارات عديدة إلى منزل جديك، وقبل أن تكسر الباب قطعت أسلاك الهاتف، كي لا ينجح الجد بالاتصال بأحد:

- كيف تسول لك نفسك طعن ما نؤمن به؟
- لم أظعن عقيدتكم، إنما بينت رأيي فيها.
- ومن أنت حتى تبدي رأياً مخالفاً لما نرى؟
- أنا مواطن من أهل هذا البلد الجميل.
- احرص أيها المخبول، وإلا هشمت لك رأسك!
- يهجم على جدك عدد من الأشخاص، ويقيدونه، ويقيدون كل من كان في مجلس الشيخ الكبير، يأخذون الجميع إلى مكان مجهول.

أبوك لم يعلم بما جرى، فقد كان في الكويت، اتصل به صديقه أبو مصطفى:

- أخذوا أباك وابنك عادل، وجميع الأشخاص الذين كانوا في مجلس أبيك.

- وأمي؟ وأختي؟

- أمك هربها الجيران إلى منازلهم، وأختك الكبيرة قيدوا زوجها وأخذوه مع أبيك إلى جهة مجهولة، وحرص الجيران على أن يبعدوا شقيقتك عن أنظارهم.

أبوك بقي حائراً، لا يعرف ماذا يفعل.

- سوف أسافر إلى العراق وأستفسر عن مصير أبي، وأعرف ماذا حل به؟

- انتظر يا أبي، أخشى أن يؤذوك إن وصلت إليهم.

يسافر أبوك إلى بغداد، ويقابل بعض الأشخاص، الذين يظن أنهم ذوو نفوذ، ويمكن أن يساهموا في إطلاق سراح جدك. يقول له أحدهم:

- عد إلى تجارتك وعملك، سوف يطلقون سراح الوالد، لن يؤذوه، هو شيخ كبير يبلغ التسعين عاماً.

يعود أبوك إلى الكويت، لكن الحيرة لم تغادره، بقي لا يعرف كيف يتصرف:

- إنه أبي، كيف أكون عاجزاً عن تقديم ما يُفيده؟

- ماذا بمقدورك أن تفعل يا أبي؟

يتابع أبوك الأخبار من إذاعات عديدة، ويسمع أن حكم الإعدام قد صدر بأبيه الشيخ، تتصل به السفارة:

- اسمع يا هذا، قد نُفذ حكم الإعدام بأبيك، نمنعك أن تخبر أحداً بهذا الأمر، وإلا سوف نبديد أسرتك في بغداد!

تستوطن الحيرة عقل أبيك وفكره، هل يستطيع الصمت؟ وأبوه قُتل غدرًا؟ هل يمكنه أن يتحدث معبراً عن ألمه، وأسرته في بغداد؟ يصيبه حزن شديد، لا يستطيع الطب أن يخفف من قسوته.

* * *

الجد عازف ماهر، حين يحضن العود ويداعب أوتاره بحنان، يستخرج منه أعذب الألحان وأجملها. في شبابه كان يهدي أصدقاءه مقطوعات قد ألفها بنفسه، أو سمعها لكبار الفنانين الموسيقيين، وأضاف إليها وغير منها، فتكون ألحاناً تختلف عن تلك التي سمعها اختلافاً كبيراً، تثير إعجاب السامعين. كان في المناسبات السعيدة يدعو أصدقاءه لحفلة في منزله في بغداد على شواطئ دجلة الحبيب، ويحضن العود، ليستخرج الدرر الثمينة. بعد أن اضطر لمغادرة الوطن الحبيب، قلت قدرة الجد على إقامة الحفلات الموسيقية، فقد زادت همومه وتضخمت المتاعب التي تحول دون إبداع المرء في أي فن من الفنون، حتى قراءاته المتعددة لأمّهات الكتب قد قلت كثيراً عما كانت عليه. أيام الشباب كان الوضع مختلفاً عما آلت إليه الأوضاع في عهود الدكتاتورية، وكثيراً ما كان الجد يردد عبارته الأثرية:

- سُلِب منا كل ما لدينا، وصار الضعف هوانا.

في بغداد كانت حديقة منزل الجد عامرة بالأشجار المتكاثفة الأغصان، تحيطها صفوف من الورود المتنوعة ذات الأريج الفتان، والثيل يحيط بحديقته الغناء، فيضفي عليها جمالاً أخاذاً

يسر الناظرين، والأس الرائع، الذي لا مثيل له في كل مكان. الآن تغير كل شيء، وصار الجمال قبحاً، والمروءة تخاذلاً، والشجاعة تهوراً. أرغم الجد أبو عادل على ترك محله التجاري في شارع الرشيد، بعد أن حورب في رزقه، مما جعله يخسر تجارته، فاضطر على الذهاب إلى الكويت بعد أن حوَصر في بغداد، وبدأ عمله في التجارة من جديد، فكَسب ثروة كبيرة. ولكن الآلام التي تراكمت عليه منذ إعدام أبيه الشيخ الجليل، جعلته عاجزاً عن أن يكون في محله التجاري كل يوم، ومنذ الصباح الباكر، فترك كل شيء لشريكه في المحل، مما تسبب في ضياع كل الثروة. وحاول أن يستعيد نشاطه مرة أخرى، لكن الأحزان التي أحاطت به بعد اختفاء ولديه قد حالت دون قيامه بأي عمل يدر عليه ربحاً كبيراً، فاكتفى بمحل صغير، يبيع فيه أدوات كهربائية، ثم حول بيع الأدوات إلى منزله ولكنه لم يجد المشترين كما كان في الأيام الماضية.. أصبح ربحه قليلاً لا يفي بمتطلبات الحياة، ولم يسأل ابنته أن تمد له يد العون، وقد أخذت تحصل على دخل كبير من عملها في التدريس، ومن إقامة المعارض التي تباع فيها لوحاتها الفنية بأعلى الأسعار.

أيامك المترعة بالجمال، تحيا معك أينما وليت وجهك، في بغداد الحبيبة حيث المنزل الكبير على شواطئ دجلة الخالد، لا يخلو منزلكم الراقي من الأصدقاء، الذين يحلو لهم أن يشاركوا الوالد في سهراته، يتبادلون الأحاديث حول الكتب التي قرؤوها. أي كتاب يصدر وفي كل مجالات المعرفة، تجدين أحد أصدقاء والدك وقد اطلع عليه، وكتب عنه عرضاً تحليلياً، يفيد فيه حقه. مكتبة الوالد جعلتك تهيمنين عليها، نصحك أن تنهلي

من علومها وآدابها، وأن تكتبي بحثاً عن كل كتاب تتمين قراءته. كان أبوك يقول لك:

- كل كتاب تقرئينه، اكتبي عنه ملخصاً تذكرين فيه اسم الكاتب وعنوان الكتاب والموضوع الذي يدور حوله الكتاب، وتاريخ قراءتك لذلك الكتاب. ستجدين أن ثروة كبيرة من الكتب المقروءة قد حصلت عليها، ويمكنك العودة لهذا السجل كلما احتجت إلى معلومة كنت تعرفينها، ولكن يد النسيان قد سبقتك في السطو عليها.

نفذت نصيحة الوالد، وأخذت تسجلين عنوان الكتاب وتاريخ القراءة وملخصاً حول موضوع الكتاب. أصبح لك سجل ضخم من الكتب التي قمت بقراءتها، وجدت أن هذا السجل قد حفظ معلوماتك وأبقى عليها.

في منزلكم الكبير، وفي حديقة غناء، تتدلى فيها عناقيد العنب، ويضوع الأس وتحن نخلاتكم الثلاث بحلو تمرها عليكم وعلى ضيوفكم. كان أبوك من الكرم، بحيث يغدق من ثمرات نخلاته رطباً شهياً لأصدقائه الأطباء، الذين كانوا يترددون على المنزل، للاستمتاع بالألحان الجميلة التي يستخرجها الوالد من مداعبته الحانية للعود، صديقه الوفي، الذي لم يتركه ولم يتنكر لروعة الصداقة وحنانها، فأراد الوالد العطوف أن يصحب العود معه في رحلته القاسية عن منابع الحب والجمال، في موطن الآباء والأجداد.

حاولت أن تبدعي في العزف كما هو الوالد بارع فيه، لكنك لم ترضي عن مستواك في صناعة الألحان رغم أن كل من سمعك قد أثنى على فنك الراقى. وثقت بقدرتك الوحيدة في صناعة اللوحات الفنية، والتعبير عن خلجات الروح، بأسلوبك الفتان.

تجددين أن صحة الوالد لم تعد كما كانت، ابتسامته الكبيرة في مقابلة الصعاب، كانت تعبر عن ثقته بالانتصار عليها وهزيمتها، لكن أباك اليوم لم يعد بتلك الثقة الكبيرة. لقد نالت من عزيمته المصائب الكثيرة التي مر بها. كل الصخور التي وضعت للحيلولة بينه وبين الماضي في طريقه المنشود لم تفت في عضده، بقي الوالد قوياً واثقاً كبيراً. ضعفت قوته حين أعدم والده الشيخ ولم يستطع أن يفعل له شيئاً، بقي والدك يلوم نفسه:

- ماذا بإمكانك أن تفعل يا والدي وهم عتاة مجرمون؟ وأبوك شيخ أعزل؟

- كان يمكن أن أولب الرأي العام العالمي.

- أي رأي عام يا أبي؟ وهم يملكون الرأي وأصحابه!

تمضي الأيام بك، متحولة من حال اليسر والجمال إلى حال العسر والقمح، فتزداد مصاعب الحياة عليك وأنت ترين أن صحة أبيك تزداد سوءاً.

* * *

تواصل سامية العمل في مرسومها، بالإضافة إلى الدروس التي تعطيها لمن يهوى الرسم ويبغي الإبداع فيه خارج المدرسة، ولا تهمل طالباتها في ثانوية الأمل النموذجية اللاتي يرغبن في التفوق في مادة فن الرسم. تقيم المعارض الشخصية والمشاركة مع فنانين كبار عرفتهم الساحة الفنية بالكويت، وأعجبت بلوحاتهم الجميلة. كُتب عن أعمالها الفنية الصحافة، وأجريت معها اللقاءات الفنية لتسلط الضوء على سيرتها الشخصية والعوامل التي ساعدت في إبراز موهبتها الفنية. وعملت على أن تكون واحدة من أبرز الفنانات في الرسم في

العالم العربي، وهذه الشهرة ساعدت أن تبرز سامية في مضمار الرسم في العالم. دُعيت إلى إقامة المعارض الفنية في أوروبا، في لندن وصوفيا وموسكو وبرلين وبراغ، وإلى العالم العربي في معارض دمشق والقاهرة والمغرب، بالإضافة إلى الأنشطة التي كانت تبذلها في مدينة الكويت. وكانت حريصة على تلبية تلك الدعوات، والدكتور خليل العبيدي حريص على متابعتها والسفر معها، ليمد لها يد المؤازرة ويشهد معها المعارض الفنية، ويكتب مشيداً بنتائجها الفني إلى الصحف والمجلات.

كنت أحضر معها إلى أغلب المعارض التي تحرص على إقامتها. سامية تمنّت كثيراً أن يحضر والدها معها إلى بعض المعارض، وأن يصحبها في إحدى سفراتها، ولكن جدي كان يعتذر، لأنه لا يستطيع أن يبتعد عن أرض العراق التي يعشقها:

- أنت الآن بعيد عن العراق!

- ليس بالبعد الكبير الذي أكون عليه حين أسافر إلى أوروبا أو أي بلد عربي.

- احضر معي في إحدى السفرات.

- ليس بإمكانني حبيبتي، هنا في الكويت يأتي إلي أصدقائي ويخبرونني بكل ما يحدث في الوطن.

- كيف يخبرك أصدقاؤك القادمون من العراق عما يحدث هناك، وهناك منع للسفر، طال كل العراقيين... تعال معنا يا أبي، ففي كل دولة توجد منظمات عراقية تتابع أخبار الوطن وتحرص على نشر ما يحدث هناك من ظلم واعتداء على أرواح الناس وممتلكاتهم، ليعرف العالم كيف يعيش أحبابنا في داخل البلاد.

يعتذر الجد عن السفر معنا، ونحترم قراره، ونسافر وقلوبنا مع الرجل الحنون الذي أذاقته الدنيا أكبر الهموم وأصابت روحه بأقسى السهام. لن تبقى له هذه الدنيا من الأحباب سوى سامية، وكانت أسرته كبيرة العدد، وكثيراً ما كان يحلم:

- أسرتي كبيرة وأولادي وبناتي سوف يكبرون، ويشغلون بأرقى الأعمال، لكنهم سوف يسكنون معي، سوف أبني لكل واحد منهم بيتاً فيه كل ما تحب النفس، وتتجاوز تلك البيوت ولا تفترق!

أحلام اليوتوبيا لم يستطع الجد التخلص من سطوتها رغم مرارة الحنظل الذي يشعر به بعد سلسلة من الهزائم والإحباطات.

يعرفك الناس ويشاهدون أعمالك الفنية، يعجبون باللوحات التي ترسمينها، معبرة عن الحياة العراقية بأجمل تعبير. تقيمين المعارض الفنية الشخصية والمشاركة مع فنانين كبار، في الكويت والبلدان العربية، ومن بلدان العالم. تجدين المتلقين يعجبون بالفن الرفيع، يكتب عن أعمالك النقاد الفنيون والصحفيون. أصدقاؤك لا يدعونك وحيدة في معترك الحياة، بل تجدينهم معك، يتابعون أعمالك وخاصة الصديق الوفي الدكتور خليل العبيدي، الذي بقي معك في كل المعارض التي أقمتها. أصدقاؤك الفنانون في أوروبا يدعونك إلى إقامة المعارض المشتركة معهم في بلدان أوروبا المتعددة مثل براغ وصوفيا وموسكو وبرلين. تلحين على أبيك كي يصحبك بالسفر، لكنه يعتذر بعدم قدرته على الابتعاد عن أرض الوطن الطيبة، حيث يزوره الأصدقاء القادمون من أرض العراق،

ويخبرونه بما حصل هناك، وما هو موقف الشعب الذي عرفه أبوك بالنضال الدائب من أجل تحسين ظروف الحياة إلى أجمل. يخبرك أبوك والحزن باد عليه بوضوح:

- اشتاق إلى بلدي الحبيب أيما اشتياق!

- بلدنا لا يمكننا البعاد عنه كثيراً.

- كان الأصدقاء القادمون يخبرونني عن كل جديد، وكأنني لم أفارق الوطن!

- اليوم منع أبناء الوطن عن السفر.

- طالت فترة المنع، حتى الأصدقاء الذين كانت لهم إقامة في الكويت مسجلة على جوازاتهم، لم يستطيعوا القدوم.

- أشعر بألم الفراق وقد اشتد علي وقعه واستعر في قلبي.

- كان الله بعوننا أبي العزيز، لا سلوى لنا.

- سلوانا في الأصدقاء الذين يشاركوننا الحياة هنا يا ابنتي.

يشد الحزن على أبيك، ترين ظهره وقد انحنى، وكان يمشي مستقيماً، يعجب الناظرون إليه من وسامته واحتفاظه بالشباب. حين كنا نسير معاً، وتراك إحدى زميلاتك في المدرسة، تتساءل:

- من هذا الشاب الوسيم الذي كان معك؟

تسارعين إلى إخبار أبيك برأي البنات بجماله ولطفه... تتمنين أن يسافر معك أبوك الوسيم إلى البلاد التي سوف تقيمين فيها معارضك الفنية، وأنت واثقة أنه لو كان يستطيع السفر ما تأخر عن تلبية دعوتك. تخفين حزنك على الأب الذي تربنه يزوي وتذبل صحته، وتسافرين إلى أوروبا الجميلة. يُذاع صيتك هناك، ويعرف اسمك كإحدى الفنانات العراقيات

المقيّمات خارج الوطن، والتي تحلم بوطن سعيد، لا تحزنه الحروب العنيفة ضد الجيران، وأن يبقى قوياً مهيباً. تدركين أن أحلامك سوف تتحقق بعزيمة أبناء الوطن وتصميمهم على الوصول إلى الغايات الجميلة.

* * *

تقوم سامية في العطلة الصيفية الطويلة برحلة عمل وسياحة إلى بلدان العالم المتقدمة، حيث الاعتزاز بنضالات الإنسان. تُدعى إلى المشاركة في الأعمال الفنية في عدد من المعارض في أوروبا. تزور هنغاريا وبلغراد ومدريد. تنجح في إقامة المعارض المشتركة مع عدد من الفنانين العراقيين والعرب والعالميين، وتصمم على المشاركة في كل المعارض التي تُدعى إليها.

بلغاريا الجميلة تكون المحطة الأخيرة في الرحلة الفنية التي قامت بها سامية. تجد أن الجمال أخذ في مدينة صوفيا وبقية المدن. تستهوي الرحلة سامية الفنانة وتتوق إلى وجود أبيها معها، تحن إلى عزفه الجميل وإلى حنانه الكبير. الدكتور خليل العبيدي يكون دائم الحضور، يحضران معاً الأمسيات الموسيقية، ويشاهدان أجمل اللوحات في معارض الرسم والنحت. وسامية لم تعمل الكثير من النصب التي يمكن عرضها في معارض صوفيا، بل اكتفت باللوحات التي تمثل الطبيعة بأجمل صورها والبورترية التي تتقنها سامية بشكل مثير للإعجاب. وحين تستعد للعودة إلى الكويت، تذهب إلى أسواق صوفيا وساحاتها وتشاهد آيات الجمال والسحر في الشوارع والمتنزهات وفي المتاحف. أجد أن الدكتور خليل يحرص على أن يكون معها طوال الوقت، فقط في الليالي

يذهب إلى غرفته في الفندق وأبقى أنا مع سامية الحبيبة والأم... أسألها:

- الدكتور خليل يحبك كثيراً.

- أعرف هذا.

- إن طلبك للزواج، هل توافقين؟

- لقد طلبني حين كنت زميلة له في أكاديمية الفنون ولم أوافق، وتزوجت من الشهيد نصير؟

- وأنت وحيدة الآن... لماذا لا توافقين وأنت تعرفين أنه عظيم الشرائع؟

- إنه رائع جداً، لكنني لا أحبه!

- ومن تحبين؟

- شخص آخر!

- هل أعرفه أنا؟

- نعم!

- من هو؟

- سوف أخبرك بالوقت المناسب.

قبل أن ننتهي لمغادرة بلغاريا، يدعونا الدكتور خليل العبيدي لحفلة راقصة على أنغام الموسيقى الجميلة. تستعد سامية للذهاب، تبدو وكأنها حورية من الحوريات، بدت لي رائعة الجمال. الدكتور خليل ينظر إليها بهيام، لست أدري كيف تتمكن من عدم الوقوع في حب هذا الرجل، الذي يسمو بكل جميل من الصفات. بقيت سامية وحيدة بعد أن استشهد زوجها نصير الذي اختارته من بين عشرات المعجبين بجمالها ورقتها

وحبها للجمال. ولكن الدكتور خليل لم يصب بالإحباط واليأس لعدم موافقة سامية على الارتباط به زوجاً، فهو يحبها ويقدرها، ولا يجد امرأة أخرى قد يجد السعادة قربها. بقي ينتظر وهو متفائل أن سامية سوف تدرك أخيراً أنه ليس من المناسب أن تبقى وحيدة والدكتور يحبها كل الحب.

الفصل الثالث

تقومين برحلة راحة واعتناء بالهوايات في العطلة الصيفية، تصلك العديد من الدعوات من أصدقاء عراقيين وعرب لإقامة المعارض المشتركة والشخصية في بلدان أوروبا. تسافرين إلى إسبانيا أولاً، ثم تعرجين على فرنسا، وتأتيك دعوة خاصة لزيارة بلغاريا والمجر وبلغراد. تشتاقيين إلى وجود الوالد معك، تشعرين ببعض الإثم، أبوك متعب مريض ولم يستطع السفر معك، ولم يمنحك مرضه من مواصلة السياحة في بلدان عديدة في أوروبا. والدك لم يتركك وحيدة طوال عمرك، حتى حين لم تختاري الشخص المناسب كي يشاركك الحياة، بقي أبوك يقف معك يساندك، ويقدم لك النصيحة. فكرت أن تطلبي الانفصال في بداية الزواج، وقد بدا لك أنك عرفت حقيقته:

- كيف تنفصلي منذ الآن؟

- لماذا يا أبي؟ أليس من حقي؟

- من حقك طبعاً، ولكن ابنك الذي في بطنك، ماذا يكون مصيره؟ هل تحكمين عليه باليتم وقبل أن يخرج إلى الحياة؟ من يدريك؟ لعل نصيراً يتغير للأفضل حين يصبح أباً؟

تفكرين بينك وبين نفسك، هل أنت أفضل الآن؟ بلا زوج يحنو عليك، ويضمك إلى صدره، بقيت ظامئة للحنان رغم طفولتك السعيدة. رحم الله نصيراً، لم تجدي معه الحب الذي كنت تتمنينه، ذهبت الشهور العشرة معه وأنت محرومة من الحقوق التي يمنحها الأزواج لزوجاتهم. عانيت كثيراً، وكنت تتساءلين، ربما كان وضعك أفضل إن بقي نصير إلى جانبك.. كلماته كانت تصيب قلبك بسهام الكره، لكنك بقيت مخلصه له في حياته القصيرة، رغم أنه كان يعلن أمام الأصدقاء أنه يخونك باستمرار. لم تعرفي كيف تعاملينه بالمثل، فقد نشأت في أسرة تحترم المرأة الفاضلة وتقدرها كما تستحق من تقدير. تسمعين من بعض الصديقات أنهن يقابلن خيانة الزوج بالمثل، وتتساءل إحداهن:

- إن خانني أخونه أنا أيضاً.. لماذا هذه المثالية؟

تتعجبين لهذا الكلام، كيف تقوم المرأة بالخيانة؟ هل تتصرف رداً للفعل، وهذا الذي تخون الزوج معه؟ أليس من هذه الأرض حيث تحاسب المرأة على أي عمل بسيط؟ كيف تكون الخيانة بلا حب؟ تعرفين كثيراً من النساء يحبين أزواجهن وتخبو جذوة الحب لديهن إن عاملهن الزوج بعنف أو أراد أن يحصل على الحب عنوة بلا موافقة واستجابة من الزوجة؟ كيف يمكن لمن لا تحب رجلاً معيناً أن تقدم على فعل الحب معه لمجرد أنها ترد عمل الخيانة بمثله؟

لم تحبي أحداً بعد رحيل زوجك، تجدين نفسك وحيدة، رغم أن العشرات من الأصدقاء يحترمونك ويقدرونك. الدكتور خليل

العبيدي أحبك طوال معرفته بك، صرح لك بحبه منذ أن كنت طالبة في أكاديمية الفنون الجميلة. لم تبادلوه الحب وأنت تكنين له احتراماً كبيراً وتقديراً عظيماً. بقي الدكتور إلى جانبك، يساعدك ويؤازرك، وكرر لك تصريحه بالحب بعد استشهاد زوجك ونجاحك في الفن والتدريس. كيف يكون الحب إن لم تحبي رجلاً مثل الدكتور خليل العبيدي؟ غفرت كل ما جرى لك من زوجك، ولكنك لم تستطعي النسيان.

* * *

القاعة تتلأل بالجمال، أطفئت الأنوار، وأشعلت الشموع، وعُزفت أجمل الألحان. مرة نسمع الأنغام الهادئة، ومرة أخرى تكون الأصوات هادرة صاخبة، تدعو الجميع إلى الرقص السريع. بدت سامية أجمل امرأة في قاعة الرقص، تهفو الأنظار إلى جمالها الفتان، وأناقته المدهشة. طلبها الدكتور خليل للرقص مرات عديدة، وأحاطها بذراعيه القويتين. وتفاءل الأصدقاء الحاضرون للحفل بهذا الثنائي الجميل، الذي لو ارتبط بعقد الزواج، لكان أسعد حبيين. كان أصدقاء سامية والدكتور مشتركين، ربطت بينهم علاقة الصداقة الجميلة منذ عهد الدراسة في الأكاديمية، وكانت مجموعة الأصدقاء متجانسة بالاهتمامات والهوايات والأفكار النيرة التي تدعو إلى النضال لتغيير العالم نحو الأفضل.

خفتت أصوات الموسيقى وعاد الراقصون إلى أماكنهم، ثم رأيت سامية تهمس لمجموعة العازفين. تعلو على إثرها صوت الموسيقى الهادئة، فوجئت حين وجدت سامية العزيزة تطلبني للرقص، فلبيت النداء وأنا أكاد أطير من الفرح.

الموسيقى هامسة، والراقصان يحضنان بعضهما بحنان

ولطف. يتمنى المرء أن يذوب بهذه الأذرع الملتفة حول العنق والخصر، وكأنها الجنة فوق الأرض. توقعت أن الجميع يحسدونني على العناق وعلى المحبة التي تعبر عنها العيون. قلت لنفسى:

- يا لسعادتي مع حبيبتي الجميلة!

سكنت الأصوات وعدنا إلى موقعنا، ونظرت إلى الدكتور، فوجدت نظراته العاتبة. أصابتني الحيرة، ماذا يمكنني أن أقول له؟ وأنا أدرك شدة حبه لسامية؟ أنا الصغير برأيهم الذي شب لتوه عن الطفولة، كيف يمكن لسامية الرائعة الجمال أن ترقص مع طفل ربه هي وكانت له أما ومربية؟

* * *

الحفلة الراقصة التي تبدين فيها منيرة، تتلأأ بالجمال الفتان. ترنو النفوس إلى النظر إلى محياك اللطيف، وقد أكسبه الشعور بالسعادة جمالاً أخذاً يسبي الحاضرين. نسيت الرجل الذي أذاقك حبك له الهوان، ولم تلتفتي للرجل الذي أشعل دربك حباً وهياماً، وأثار طريقك، وبقي يحلم أنك تبادلينه المشاعر. لم يطلب قوة العاطفة التي يحملها لك، بل أمل أن تحترمي حبه وتقديري المشاعر الجميلة التي حملها في قلبه ووجدانه طوال هذه السنين. كنت تعرفين أن الدكتور لا يحب سواك، وأنه سوف يصبح في قمة السعادة إن أحببته. ولكن ما بالك؟ أخشين ممن يصرح لك بالحب؟ هل تخافين أن يكون الدكتور شبيهاً بالذي رحل، وأراك النجوم في عز الظهيرة؟ أنت الفنانة المرفهة الشعور، هل تتوقعين أن يكون الرجال على شاكلة واحدة؟ وهل يمكن أن يكون الغدار مثل الوفي؟ أنت تثقين بحب الدكتور خليل، ولكن الخشية تلازمك. هل الرجال كلهم سواء؟

تدركين أن كل امرئ يختلف عن الآخر في الصفات، ويتباين عنه في الشمائل والمزايا، لكنك تأبين أن تعيدي المسيرة نفسها، وأن تكون حياتك مترعة بالهموم، وأن تشربي كأس التعاسة حتى ثمالتها. طلبك الدكتور للرقص عددا من المرات هذه الليلة، ساعده يشعرك بالحب العميق، ونظراته تعبر لك عن دواخل نفسه المغردة بامرأة واحدة هي أنت. إنه رجل النخوة والشجاعة، وكل تصرفاته تعلن أنه يعشق امرأة واحدة هي أنت، منذ كنتم طلاباً أنت في الأكاديمية وهو في الطب، وأنت تدركين مدى حبه لك. أتخشين من الحب؟ تعرفين أن الدكتور يحبك أنت، ولكنك اخترت رجلاً آخر. هل العيب فيك؟ لماذا تخشين من الرجل العاشق بصدق؟ تبدين هذه الليلة نجمة ساطعة الجمال، تهفو القلوب إليها، وأنت سوف تختارين رجلاً آخر، لا يعرف أحداً سواك. لم تحبيه حب امرأة لرجل حياتها، إنما أردت أن تنتقي رجلاً لم يعرف النساء. أنت تدركين أن سعادة المرأة تكون مع رجل جرب الحياة، وبلا صروفها، ولكن الخوف من مصير تعس يلزمك. كلما فكرت أن تنفذي نفسك من الحفرة التي أوقعت نفسك فيها، يستبد بك الخوف أن تلقي المصير نفسه. الرجل الذي سوف تختارينه لن يكون قاسياً عليك، فقد قدمت له أرطالاً من الفضل، وهو من أسرة طيبة، تعرف كيف ترد الجميل بأضعاف أمثاله إن سلاك. سوف لن يكون شديد العنف معك، ولن يصرح بحبه لامرأة أخرى أمامك. سوف يحترم شعورك، ويقدر الأعمال الخيرة والنبيلة التي قدمتها له. لن يكون ناكراً للجميل.

أصوات الموسيقى تمنحك شعوراً بالبهجة، أنت ملكة هذا الحفل. لا توجد نساء الليلة يتمتعن بجمالك الفريد وفتنتك الطاغية، والشعور المرهف. أنت فنانة مبدعة، وسوف تختارين رجلك، كما تختار الفنانة سامية مواضيع لوحاتها.

رسوماتك ليس فيها إنسان يرغم على عمل شيء لا يرغب فيه. سوف تخبرين الرجل الذي تختارينه أنك تحبينه. وهل يمكن لك أن تصرحي بالحب؟ هل يمكن لامرأة عراقية أن تعترف بحب رجل لم يبدأها بالتصريح؟ وأنت التي تقدرين الناس والمجتمع. ليث الحبيب، أنت ربيته منذ كان طفلاً، حتى الطغاة على طفولته، وأبادوا أسرته أمام عينيه. لم تشعره يوماً بالمن، اعتنيت به وربيتيه كما لو كان ابناً لك. لم يتسن لك العناية بجنيك، فقتل رغماً عنك، وكنت تأملين أن تكوني أما، ولكن الأيام ضحكت عليك ولم تحقق لك الأمنية التي حلمت بها. عوضك الله عن الطفل الذي حرمت منه، وجاء ليث ابنك الحبيب. كنت ترين في عيونه حين ينظر إليك، آيات الوجد والحب. هو لم يصرح لك بحبه، فقد كان يجلك، لكن شعوره بالحب حاول أن يكتمه داخل قلبه، فلم يستطع. وجدت في نظراته سهام الحب توجهها عيناه نحوك. أنت امرأته وإن لم يصرح لك بهذه الحقيقة. أنت واثقة أنه لم يعرف امرأة غيرك:

- حبيبي ليث، هذه الرقصة لك.

يحدثني الدكتور عن هيامه وشدة حبه لسامية، يتعجب كيف لمخلوقة ذكية مثلها إلا تدرك أنه الوحيد القادر على إسعادها. أنصت له باهتمام، فهو شخصية تنال احترام الناس وتقديرهم، وسامية يحبها الكثيرون، وأنا منهم. أرنو إليها وأنا أقمع رغبتني بها وأحلامي التي أسعى إلى تحقيقها، وأنا أحاول جاهداً ألا تظهر على تصرفاتي. سامية أُمي التي رعتني، كيف يمكنني أن أتطلع إلى الاقتران بها؟ ماذا تظن بي إن اعترفت لها أنني الحالم الدائم والهائم المستعر الرغبة؟ أكبت رغبتني وأحاول

وأدها... يا لتعاستي! لم تظهر لي إلا عطف الأم ورعايتها. كيف أنوي لها الشر في أطماع قلب أرغب في جعله يتوب عن الهوى؟ أحترم الدكتور خليل وأقدره، فهو الصديق الوفي، يقف بجانب صديقه وقت الملمات، ويدراً الأحران عنها. وهل الحب مرض يصيب النفوس بالتعاسة ويقضي على اطمئنانها؟ كتمت حبي في قلبي، وأظهرت العرفان وشدة التقدير لمخلوقة أنقذتني من موت محقق.. وأنا أصارع في نفسي رغبتين متنافرتين، الأولى أن تلتفت الحبيبة سامية إلى الرجل الذي أحبها بصدق ونكران ذات كل هذه الفترة، ولم يصبه اليأس أن تبادلته الحبيبة حبه بشعور أكبر. والرغبة الثانية أن تمكن من التصريح بحبي الكبير لسامية العزيزة، وأنا بنظرها ورأي المعارف والأصدقاء ابن لها قامت بتربيته ورعايته حتى شب عن الطفولة وصار رجلاً.

* * *

أنت تعرفين أن الدكتور خليل يحبك، لكن خشيتك أن حبه قد ينقلب وبالأعلى عليك إن اقترنت به، فيفسد عليك أيامك ويجعلك نهياً للمخاوف. نصير انقلب حبه، فهل الرجال سواء؟ منذ زمن طويل وأنت مطمئنة إلى خليل، واثقة من حقيقة مشاعره، ومن صدقه وإخلاصه. لم تعتادي منه الكذب في كل المواقف، لم يخن صديقاً ولم يتنكر لأحد. نصير أيضاً كان وفياً مع أصدقائه الرجال، في أقصى المواقف يجدونه معهم، وحتى مع صديقاته اللاتي أحبهن، لم يتنكر لإحداهن. لماذا كان مختلفاً معك؟ لماذا صرح نصير بحبه الزائف لك؟ هل لأن أباك كان غنياً ذلك الوقت؟ جاءك نصير وادعى أنك الوحيدة التي تتربعين على عرش عواطفه، وأنه لا يعرف امرأة سواك، وأن جميع من رأيتن معه مجرد صديقات كن زميلات أيام الدراسة. لماذا

اخترت الكاذب المدعي ولم ترضي بالصادق الذي وثقت به منذ بداية معرفتكما؟ تجعلك الحيرة مترددة، لا يمكنك أن تتخذي موقفاً في أصعب أمور الحياة، والتي تستوجب التأني والتفكير جيداً قبل الإقدام على أي فعل عفوي وغير مدروس. ليث لا يمكن أن يخذلك! أنت التي قدمت له كل ما تستطيع امرأة أن تقدمه لرجل! هل كنت تنتظرين إليه كرجل وهو الطفل الذي فقد كل أفراد أسرته؟ هل ظننت يوماً أن ليث الصغير قد يعوضك عن الرجل الذي فقدته؟ لماذا تكذبين على نفسك؟ ادعيت أنك أحببت نصيراً لمجرد أنه صرح لك بحبه. لماذا سارعت إلى تصديق رجل لا تعرفينه جيداً، والرجل المحب الصادق معك في كل المواقف التي تمرين بها؟ الليلة هذه يجب أن تحققي فيها سعادتك، وأن تختاري الرجل الذي تثقين أنه لا يمكن أن يخذلك، وأن يوجه لك سهام الغدر في يوم من الأيام. ليث يحبك، كنت ترين علامات الحب في عينيه اللتين يحاول أن يخفي ما يظهر فيهما من عواطف. ليث ما زال صغيراً، بلغ سن الرجال قبل قليل، ولم يتعرف بعد إلى أي امرأة، وهو يحبك أنت. سوف تتعشين الحب الذي يحاول ليث إخفاءه. سنين قليلة تفصل بين عمريكما، سوف لن تبالي إن انتقدك أحد للفرق الواضح بين عمرك وعمر الصغير الذي ربيته. ولكن الكثيرين سوف يؤيدونك، أصدقاؤك يعرفون شدة معاناتك، وسنين عمرك التي حرمت فيها. الدكتور خليل سيقف بجانبك، كعادته دائماً، متناسياً كل الجراحات التي سببتها له. في هذه الليلة وحيث الموسيقى تصدح بأصواتها الجميلة، يطلبك الصديق خليل العبيدي عدداً من المرات، ترقصان أنواعاً من الرقصات، الهادئة والساخنة. حتى احتضانه لك أثناء الرقصات يعبر عن شدة حبه لك. سوف تنسين كل ما يعبر عن حب الدكتور لك، وتذكرين أمراً واحداً أن ليث لا يمكن أن

يسبب لك ما يطعن كرامتك. تطلبينه للرقص، فيلبي سعيداً
طلبك.

الفصل الرابع

أوشكت العطلة الصيفية على الرحيل، وسامية تنهل من آيات الفن والجمال الموجودة في صوفيا. قلت لها:

- ما زال الوقت مبكراً على العودة إلى الكويت، فالدوام يبدأ بعد أسبوعين.

- اشتقت إلى أبي، وإلى مدرستي وأجوائها الجميلة، كما أنني بلهفة لرؤية طالباتي وكيف هي إبداعاتهن في مضمار الرسم.

لم أحب، وإن كنت أفضل البقاء فترة أخرى في بلغاريا، ولكن حين تقرر سامية، فأنا مع قرارها أجد الجمال والمتعة.. تهيأنا لمغادرة البلاد، اشترت سامية ما ترغب بإهدائه لوالدها وأصدقائها ذكوراً وإناثاً، وحجزنا بطاقتي سفر على الخطوط الكويتية.

نستقل الطائرة، ننظر من النافذة حيث المشاهد الجميلة للأرض، نرى بساطاً من الخضرة والجمال. نصل المطار، ونتأهب ككل العائدين إلى أرض الكويت. يمضي الجميع مغادرين إلى منازلهم، ونبقى نحن ننتظر السماح لنا بالمغادرة. أصابني التعب من الانتظار الطويل الذي فاجأني، كما ألاحظ الإعياء باديةً على محيا سامية. وبعد أن خلت قاعة العائدين من الجميع، وبقينا وحدنا، سألت سامية:

- لماذا أخرتمونا هذه المرة؟

- أنتم ضيوفنا الأعزاء، نرحب بكم في بلادنا، ونعلم أنكم تعاونون من قسوة الحياة، وأنكم تقفون موقف المناهضة من حكومة بلادكم الحالية.

- لكني أحب بلادي!

- لا أدري، أنت فنانة كبيرة، رسامة مشهورة، وأنا أتابع ما تعرضين من روائع الأعمال.

- وهل وجدت في أعمالي ما يعادي بلادي؟

- لم أجد طبعاً.

- ولماذا هذا الموقف؟

- لأننا حريصون على إرضاء حكومتكم، فأنتم جيراننا.

- وأنا من ضيوفكم!

- اسمك ضمن أسماء العراقيين المطلوب منا التدقيق في حركاتهم.

- والمعنى؟

- سوف تخضعون للتأخير والاستجواب أحياناً!

تصمت سامية، يبدو عليها واضحاً الشعور بالظلم الذي سارعت بالخروج من بلادها مسرعة لتلافيه. خرجت وهي حامل في شهرها التاسع، كي تنقذ نفسها من المصير الذي حصد روح زوجها. لم تقل كلمة واحدة، وخرجنا من المطار.

تتهيئين للعودة إلى الكويت، اشتقت إلى أبيك الحنون وإلى الصديقات والأصدقاء في البلد الذي أواك حين خرجت من بلادك الحبيبة مرغمة. تودعين أصدقاءك في صوفيا الجميلة، بعد أن خرجت إلى الأسواق عدداً من المرات، يصحبك صديق العمر الدكتور خليل العبيدي. كنت قد حددت موعد رجوعك مع الحبيب ليث في بطاقتي السفر اللتين ابتعتهما في الكويت على الخطوط الكويتية. تركبان الطائرة، وتنتظران إلى المناظر الخلابة، تبدو الأشجار ساحرة الجمال على البعد. يشعر ليث ببعض التعب، تنصحينه بالنوم داخل الطائرة، وأنت تفكرين في وضعك، وفيما آلت إليه أمورك. أنت قلقة والحيرة تستبد بك. حققت نجاحاً كبيراً في عملك، واستطعت أن تحصلي على تقدير مديرتك في الثانوية النموذجية التي تعملين فيها، وحصلت على عدد من كتب الشكر بعد تقييمات ممتازة كتبها لك الموجهون الفنيون الذين زاروا مرسمك واطلعوا على تفانيك في العمل وعلى إخلاصك. تشعرين ببعض التعب، تطلبين فناناً من القهوة، ترشفينها على صوت الحبيبة فيروز وهي تشدو بأغانيها الجميلة التي تحبين. خيل لك أن الرحلة قد استطل أمدها، وأنت بسبب القلق تجدين كل الأوقات ثقيلة. الانتظار يصعب عليك. تخرجين من حقيبتك اليدوية دفترأ صغيراً، تقومين بتسطير بعض العبارات التي فكرت بها وشعرت بعمقها وجديتها. بعد طول انتظار تصل الطائرة إلى

مطار الكويت، تسعدين بوصولكما إلى البلد الذي أحببته كثيراً، وأنت تنهيئين للخروج من المطار. تتأخران في الخروج من المطار لأن جوازيكما لم يتم التأشير عليهما بسرعة. أصابك الإرهاق الشديد، وتساءلت عن سبب التأخير، وكان الجواب على قلق سؤالك:

- حكومتكم تقول إنكم معادون لها.

- لكني أحب بلادي وإن كنت لا أحب نظام الحكم فيها.

- نحن نقدرك ونعتز بك، فأنت فنانة كبيرة، ويعرفك الكثيرون في العالم العربي والعالم.

تخرجين من المطار وأنت تشعرين أن بعضاً من الراحة قد عادت إليك. تستقلان سيارة أجرة، وتطلبين من السائق أن يوصلك إلى المنزل، لتسعدي برؤية الوالد الذي فارقتك كثيراً، ولم تكوني راغبة بفراقه، ولو كان الفراق بسبب رحلة سياحية وطلب للراحة بعد عناء العمل.

يساعدك ليث في حمل الحقائب التي كانت ثقيلة عليك، فرحت بشبابه وقوته وأنت تنشدين أن تحسلي على سعادتك المفقودة قربه.

* * *

تبدأ الدراسة في ثانوية الأمل للبنات، تجد سامية أن وكيلة المديرية قد رحلت إلى الرفيق الأعلى، فقد كانت مصابة بسرطان الثدي. تأسف لهذا الرحيل، فقد كانت الوكيلة الست أهات مثال الطيبة والحنان، تحب الطالبات وتقف معهن ومع المدرسات في وقت الشدة. وكثيراً ما استمعت إلى القصص والحكايات التي ترويها سامية عن الحياة القاسية التي يعاني

منها شعب العراق. ترى سامية الدموع تنهمر من عيني الوكيله تضامناً ومؤازرة لمن لم يستطع أن يقدم شيئاً سوى الكلمة الطيبة. تشعر سامية بألم فقدان لصديقة عزيزة خسرتها دون وداع. والذي زاد من أحزان سامية أن وزارة التربية قد جاءت بوكيلة أخرى للمديرة، تختلف تمام الاختلاف عن الوكيله الراحلة. فقد كانت الست نور لا تحب المدرسات ولا الطالبات، وتحقد على كل من يملك موهبة من المواهب. هاجمت سامية بدون سبب، كما وقفت مناوئة للشاعرة الست نضال، وطالبت المدرسات أن يدفعن طالباتهن على التعبير عن أوجاع الحروب التي يعاني منها العراقيون، وأن يقفوا متضامنين مع النظام السائد في بلاد الرافدين، لأنهم في حالة حرب مفروضة عليهم نيابة عن الأمة العربية. لم تستطع سامية أن تبين خطأ رأي الست نور، التي كثيراً ما وقفت مهددة:

- من لم تنفذ ما أطلبه منها من مقالات وشعر وقصص ورسم، وتجعل إبداعها في خدمة المعركة، سوف أشكوها للسلطات!

تدرك سامية أنها الوحيدة المقصودة بالتهديد، لأنها عراقية قد تقدم شكوى ضدها إلى سفارة بلدها. أما المدرسات الأخريات فهن مواطنات عراقيات لا يتدخلن في أمور السياسة المتعبة والتي لا تعرف المنطق، وبقية المدرسات عربيات من مصر أو سوريا أو من دولة فلسطين.

ومما ضخم من حالة الحزن التي تعانيها سامية، أن أباه لم يعد يتمتع بالقدره على الابتسامة والضحك، كما كان في الأيام التي سبقت سفرها إلى أوروبا. اشتد على والدها المرض وثقلت الحركة، وأصبح يعاني من صقيع لا يمكن لكل مدافئ الدنيا أن تخفف من فسوته.

وقد غادر الدكتور خليل العبيدي الكويت، متوجهاً إلى صوفيا التي أحبها كثيراً، ففقدت سامية رفيقاً وصديقاً عزيزاً وقف بجانبها طوال رحلتها الفنية، وأزرها بكل ما يستطيع. لم تجد سامية من يستمع إلى همومها، فاكتفت بالرسم معبراً جميلاً، قد لا يدرك رسالته إلا القليلون.

وقد حاولت أن أخفف مما تعانيه سامية من آلام الفقد والحرمان، ولكنني أجد نفسي عاجزاً. هل أنصحها أن تصبر؟ وقد عرفتها صبورة؟ أم أرجوها أن ترحل إلى مكان آخر تجد فيه أصدقاءها؟ وأنا أعرف شدة حبها لأبيها الذي جعله الشعور بفقدان الأحبة يفقد كل قدراته التي كان يتمتع بها.. أم أطلب منها الانتقال إلى مدرسة أخرى؟ وأنا أعلم أن سامية تحب ثانوية الأمل وعاشت مع إدارتها وطلبتها أسعد الأوقات.

تعودين إلى ثانوية الأمل التي تحبينها، بكل همتك ونشاطك المعهودين. هاتفت صديقتك نضال بعد رجوعك من السفر، أخبرتك بما حصل في المدرسة من أمور جديدة:

- المدرسة على حالها، المديرية خديجة الطيبة كما تعهدينها قريبة منا.

- والوكالة الجديدة؟

- عُينت بدلاً عن الراحلة الأستاذة آهات وكالة جديدة، سمعنا أن الوكالة الجديدة تختلف تمام الاختلاف عن الراحلة الحنونة.

- وكيف عرفت بالاختلاف؟

- كانت الست نور وكالة في إحدى الثانويات، وقد تغير مكان سكنها، فطلبت أن تنتقل إلى مدرسة قريبة من السكن،

وكانت تود أن تعمل في ثانوية الأمل، وكان لها ما تمننت....
لكن المدرسات في مدرسة الست نور السابقة يخبرنني أن
وكيلتكم الجديدة خشنة الطباع، تتباين صفاتها عن الراحلة
المرحومة الست آهات التي كنت تحبينها كثيراً.

- كنت أحب العريزة آهات، كثيراً ما استمعت لي وأنا
أحدثها عن الحياة الصعبة التي يمر بها العراقيون، كنت أجد
عندها التضامن معنا والحنو علينا، ومحاولة التخفيف عما
نشعر به من هموم.

- الإنسان موقف، رحم الله عزيزتنا الست آهات، وعسى أن
تكون الصفات التي عرفتها عن الست نور بعيدة عن الحقيقة!
- أتمنى ذلك، فليس كل ما يقوله الناس صادقاً ودقيقاً.

تدخلين المدرسة كعادتك كل يوم، قبل أن يدق الجرس
بنصف ساعة، تتهيئين فيها لبدء يوم دراسي جديد. وحين يدق
الجرس قبل خمس دقائق من بدء الدروس، يقف الطلاب في
صفوف منتظمة، ثم يسировون إلى صفوفهم. دخلت غرفة
المدرسات، ووجدت النور في غرفة الوكيله مضاءً، فأسرعت
لتحيتها:

- آه، أنت الست سامية؟ لقد سمعت عنك.

- أرجو أن تسمعي عني كل خير.

- ليس دائماً، أنت مثابرة ومجتهدة في حدود العمل فقط،
سوف أجتمع بالمدرسات هذا اليوم في وقت الاستراحة وأتحدث
معكن بكل صراحة.

تشعرين أن قلبك أصبح مضغوطاً عليه، كأن قوة كبيرة لا
تملكين لها دفعاً تضغط عليك، وتمنع عنك التنفس. وحين
تخرجين من غرفة الست الوكيله تسلمين على صديقاتك

المدرسات، تعود إليك فرحتك ببدء يوم دراسي جديد.

بعد عودتك من السفر صُدمت بحالة أبيك، عرفت أنه قوي وصبور، لكنك وجدته اليوم تعباً مرهقاً يشكو قسوة البرد ويعاني من ألم فقدان. تحاولين التخفيف مما يعاني، لكن أباك قد أصيب بلوعات الحياة وسهام الغدر، فأنهكت نفسه وأتعب قلبه، وتراجعت صحته. بقي أبوك رغم مرضه القلب الحاني لك، تستمدين منه شعورك أنك قوية تتمتع بجمال الحياة، قادرة على أن تساهم في التخفيف من البشاعة التي يحاول بعض الناس إلصاقها بالأيام.

* * *

تتضخم متاعب سامية، وتكاد تفقد أعز الأمكنة التي كانت تقدم لها ما تتطلع إليه من تفهم. أغلب الأصدقاء الذين كانت تجد راحتها بوقوفهم إلى جانبها متضامنين ومؤازرين، أخذوا يغادرون بلاد الكويت إلى بلدان أخرى يحصلون فيها على الأمان المفقود. فكل عراقي كان يراجع سفارة بلاده لتجديد الجواز أو الحصول على تأييد لأي شهادة يطلبها، كانوا يطلبون منه مبلغاً خيالياً لا قدرة لهم على القيام بدفعه. وإن علمت السفارة أن المراجع العراقي غير قادر على دفع الرسوم المالية التي يرهقونه بها، كانوا يطرحون عليه السؤال الأزلي:

- لماذا لا تعود إلى بلادك؟

- أحب بلادي وأنا مرتبط بعمل هنا، وسوف أعود إلى وطني في الوقت المناسب.

- ومتى يكون الوقت مناسباً برأيك؟ الآن يجب أن تعود..
إننا في حالة حرب، وعليك واجب الدفاع عن وطنك!

أرغم الكثير من العراقيين العاملين في الكويت على ترك أعمالهم والتوجه إلى بلدهم، والانخراط في الحياة العسكرية التي بدت مستبدة بالحياة كلها. كل شيء في الوطن العراقي يخوض حرباً طويلة شرسة، لا منتصر فيها، الجميع فيها مغلوبون!

سامية ليس معها رجل لتقدمه وقوداً للمحرقة! أبوها المريض قد جاوز السن التي يستطيع فيها أن يرتدي الملابس العسكرية. وفي ثانوية الأمل الجميلة التي أحببتها سامية، وأبدعت في تدريب الطالبات على رسم أجمل اللوحات الفنية، هذه الثانوية استطالت فيها يدا الوكيله نور، التي أخذت تمعن في اضطهاد المدرسات اللاتي لا يستجبن لأوامرها في التجسس وكتابة التقارير عن كل كلمة تُقال، ولو همساً، وتفسيرها بما يسيء للقائلة!

حتى اللوحات الفنية التي كثيراً ما نالت استحسان كل من شاهدها لم تسلم من التفسير المُتجني لمعانيها!

- أنت معادية لوطنك؟

- كيف؟

- لوحتك التي عنوانها (الجندي المجهول) تهاجم قادة البلاد!

- ولكن النقاد الفنيين لم يفسروا لوحتي هذا التفسير!

- إنهم مثلك أيضاً، ضد الحرب، ولوحة (القيد) تظهر

العراق وكأنه في سجن كبير!

تصمت سامية، لم تستطع أن تقول:

- حقاً! ألسنا في سجن مؤبد!

تعود سامية إلى منزلها بعد انتهاء الدوام وهي مثقلة بالهموم،

تحدث نفسها:

- أبي سوف يمنحني الراحة، حين يستمع إلى همومي،
فأجدها وقد خفت وطأتها على نفسي!

* * *

لا تستمر سعادتك في الثانوية التي تحببها كثيراً، حققت فيها
النجاح الذي تطمحين إليه، تصلين إلى تدريب فنانات كبيرات
يجدن الرسم ويبدعن فيه. الطالبات يحترمنك ويتحدثن معك
بمشاكلهن، تتوصلين معهن إلى الحل الذي يسعدهن ويرضيهن.
كانت الساعات التي تقضينها في الثانوية تحقق لك الرضا عن
النفس والثقة بأن الأيام يمكن أن تكون جميلة إن بذلنا الجهد
لتحقيق ذلك الحلم. كنت تتحدثين مع الوكيله الراحلة بهومك،
فتستمع إليك وتعرف ما عانيته مع الآلاف من أبناء شعبك.
عرفت الراحلة أنك تحملين قلباً رحيماً بين ضلوعك. رحلت
الوكيلة التي تقدرينها وتجدينها صديقة لك قريبة من نفسك،
جاءت لكن وكيلة أخرى تختلف تمام الاختلاف عن الراحلة.
حزنت وكنت تدركين أن الحزن لن يجديك، وأنت لن تستطيعي
مواصلة النجاح إن صار جو المدرسة مشحوناً بالكرهية
وتأليب إحدى المدرسات ضد أختها. لم تعتادي على الجو الذي
خلفته السيدة نور، فكرت في البداية أن تصمتي ولا تعلقي
بشيء على الأحداث الجديدة التي جرت في المدرسة. لم تعبري
عن حبك للوكيلة الراحلة، خشيت أن التعبير عن حبك قد
يغضب الجديدة، التي أخذت تهاجم القديمة بمناسبة وبغير
مناسبة، واصفة إياها بالتقصير، وفسح المجال أمام المدرسات
للحديث بأمر السياسة المحرمة في المدارس. وقد هاجمتك
الوكيلة الجديدة حين نسبت كل حالات التقصير للراحلة:

- الله يرحمها، لم تكن تتصف بالشخصية التي تحمل

الآخرين على احترامها وتقديرها. وكيلة المدرسة ليست صديقة للطالبات، وحتى بعض المدرسات يجب ألا تسمح لهن بالهجوم على أوطانهن. وجدت هنا في المدرسة عصابة من الناقمات على بلادهن الكارهاات لها!

تعرفين أن الوكيلة الجديدة تقصدك أنت، ولكنك تسكتين. المجادلة الآن وأمام المدرسات والطالبات لن تجدي. عليك أن تكوني حكيمة وتتخلي بالصمت.

فقدت الصدر الحاني والقلب المتعاطف برحيل إنسانة وقفت بجانبك دائماً. صار الصمت صديقاً لك. كنت معروفة قبل رحيل الست آهات بأنك قليلة الكلام، أصبحت بعد رحيلها لا تجيدين الحديث إلا مع لوحاتك. تبثينها همومك وتخبرينها بما جرى لك، فتقوم الألوان بنقل ما حدثتها به من صدق المعاناة ولوعة المشاعر. وحتى الموجهون الفنيون، لم تقم الوكيلة الجديدة تحدثهم عن براعتك في فن الرسم وتفايك في تدريب الطالبات، كما كانت تفعل الراحلة العزيزة. فقلت كتب الشكر الموجهة من وزارة التربية تحت المدرسات على مضاعفة جهودهن لجعل الطالبات يتقن الرسم ويقبلن على التدريب ليس في المدرسة فقط، وإنما في المنزل حين يجدن الوقت بعد مراجعة الدروس الأخرى وأداء تمارينها.

أصدقاؤك الفنانون حين يراجعون السفارة لتجديد جوازاتهم أو تمديدها، تطلب منهم السفارة مبلغاً كبيراً، لا يمكنهم دفعه. وحين يعبرون عن عجزهم عن الدفع بسبب ضيق اليد، يوجه لهم الاستفسار القاسي:

- ولماذا أنتم هنا؟ عودوا إلى أوطانكم، فهي بحاجة إليكم. نحن في حالة حرب، وعليكم الدفاع عن بلدانكم التي تدعون أنكم تحبونها.

لم يستطع الفنانون العودة إلى العراق، ولم يتمكنوا من البقاء بعيدين عنها، فآثروا الرحيل إلى مكان آخر، لا يطلب منهم أحد نقوداً ليسوا بقادرين على دفعها. سافروا إلى بلاد أخرى مضطرين، أملين ألا تطول غيبتهم عن الوطن الحبيب العراق.

وأنت لا يمكنك أن ترحلي، بقيت لك مدرستك التي تحبين وأبوك الحنون. إن مرض الآن فسوف يشقى قريباً. تقرر إن تمكثي هنا، لتسعي مع طالباتك ولوحاتك وأبيك. تقرر إن تتحملي تلميحات الوكيل الجديدة، فلن يكون بمقدورها أن تحاربك كما كانوا يفعلون معك في العمل في بغداد.

* * *

تعود سامية إلى منزلها، تجد أباهما وقد اشتد عليه المرض ونقله الجيران إلى المستشفى. وقبل أن تتناول شيئاً لتسد به الجوع، تهرع إلى المستشفى للاطمئنان على حالة والدها:

- أبوك يعاني من عدد من الأمراض، فيه مرض القلب وثقب بين الأذنين والبطين، وعسر التنفس، وشعور بالبرد لا يمكن البرء منه إلا بالعودة إلى ديار الأحبة والأصدقاء.

- وما العمل يا دكتور؟

- عليكم إشعاره بالحب!

- وكيف نعيد له الأحبة الذين قضوا نحبهم؟

- كان الله بعونكم، أنتم أهل العراق معرضون للظلم دوماً!

- ماذا نفعل بشأن أبي؟

- أجرينا له عملية تنفس صناعية، وبقي التنفس عنده مضطرباً. لئبقَ عندنا أياماً، ليسترد بعض عافيته!

ترى سامية أباهما، تعانقه، تجد أن ابتسامته الفريدة قد عادت مرتسمة على وجهه، وأن الغضون والتجاعيد التي حفرتها سنون الألم قد اختفت. تفرح سامية، أبوها قد عادت إليه الطمأنينة. تخبره أنها سوف تذهب إلى المنزل لبعض الأمور المستعجلة، وتعود إليه بعد الظهر. تبدو على الأب علامات التفهم، هو يعلم أن سامية كثيرة الأعباء، في المدرسة وفي البيت، وهي أيضاً من يقوم بالتسوق، والمسؤولة عن ميزانية البيت بعد أن أصاب المرض قدرة أبيها في السير والتنقل بين الأسواق وشراء ما يحتاج المنزل من مواد، لا يمكن تأجيل الحصول عليها.

بعد استراحة لمدة ساعة واحدة تعود سامية إلى المستشفى، تجد أباهما وقد وضعوا له المغذي وجهاز التنفس. ولكن العينين المتلالتين بالفرح يبتسمان حين ترين الابنة الحبيبة، وقد دخلت غرفة أبيها.. تأمل سامية أن يعود الأب إلى المنزل الذي يضيء عليه البهجة والحبور. تتحدث عن بعض الأمور المفرحة، وترى علائم البهجة على الوجه الحبيب. تعد أباك أنها ستعود إلى عيادته غداً بعد انتهاء الدوام في ثانوية الأمل. يتسلل الفرح إلى نفسي التي أتعبها أن أجد أحبتي في حزن مستمر.

تعبك مستمر، تريدان إعادة الفرح إلى نفسك التي أمضاها الحزن. تسارعين بعد انتهاء دوامك في الثانوية إلى الخروج لرؤية أبيك الذي اشتقت إليه. لا أحد معك في هذا العالم، تثقين بقلبه المحب وعطفه المتواصل، وحرصه على إسعادك. يتضاعف قلقك وتشتد خشيتك حين لا تجدان الوالد الحنون في المنزل. قبل أن تتضخم مخاوفك تأتيك الجارة:

- أبوك شعر بالتعب الشديد، نقلناه إلى المستشفى، بقي ابني عماد معه، فهو يحبه كثيراً. لأبيك علينا أفضال كثيرة.

قبل أن تتناولي لقمة لسد غضب الجوع، تسارعين إلى المستشفى:

- أبوك متعب بمرض خطير.

- مم يشكو والدي؟

- من فقدان الحنان، تعرض أبوك لمصاعب جمة أفقدته الأشخاص الذين يحبهم!

- وكيف يمكن أن يستعيد صحته؟

- أنت ابنته، التي بقيت له في هذه الحياة، حاولي أن تضاعفي له الحنان. هو مصاب بمرض البرد، مهما دفأته، فإن البرد يضايقه.

- أبي مرتبط بأسرته، يحب إخوتي وأخواتي كل الحب، لكنه أرغم على فراقهم. اعتُدي على حياتهم، ولم يستطع أبي أن يفعل شيئاً، بقي يحاسب نفسه أنه لم ينصح أبناءه بالابتعاد عمن يسبب الأذى قبل وقوعه!

- أنتم تتعرضون للظلم بصورة لا قدرة للشعوب الأخرى بتحملة!

تتقين مع والدك فترة من الزمن، ثم تستأذنيه للذهاب إلى المنزل والعودة إلى المستشفى بعد ساعتين. تغادرين غرفة الوالد وقلبك يشعر بتوتر شديد وتقل ثقتك بقدرتك على تجاوز وضعك المؤلم لوحدك. أبوك كانت له المساهمة الكبيرة في إبعاد الحزن عنك، وجعلك تتغلبين على كل القوى السلبية التي يمكن لها أن تشعرك بالهزيمة.

تحاولين إغماض عينيك وجلب الراحة إلى نفسك المجهدة. أفكارك المتلاطمة لا تجعلك تحققين ما تصبو إليه نفسك من راحة قليلة بعد عناء يوم كامل مع الأذى الذي تسببه السيدة نور في المدرسة ومع قلقك على صحة والدك.. تقومين من فراشك وأنت عازمة على طرد الشعور بالتعب. تقومين ببعض التمارين التي تساعد على الاسترخاء، يعود الهدوء إلى نفسك. تذهبين لعيادة الوالد وأنت مصممة على محاربة كل ما يأتي بالكآبة إلى النفس. يشاهدك أبوك وأنت تدخلين غرفته، ترين الابتسامة عريضة على محياه. تتحدثان معاً ببعض الأمور التي تجدينها قادرة على أن يحتفظ أبوك بابتسامته المشرقة، وأن يكون متفائلاً. إنه قادر على التخفيف من جيوش القهر والمرض التي نجدها مقبلة على جسد الوالد وروحه وسلب القدرة على الفرح لديه.

* * *

يخبر الطبيب سامية أن أباه قد تجاوز حالة الخطر، وبإمكانها أن تخرجه من المستشفى. تتردد سامية في تنفيذ نصيحة الطبيب، وتسعى إلى أن يمكث أبوها حتى يتمثل للشفاء الكامل:

- لا وجود لشفاء كامل في حالة أبيك!

- ماذا تعني يا دكتور؟

- إن وضع العراقيين اليوم شديد البؤس، كل فرد منكم معرض لارتفاع الضغط والسكر وتصلب الشرايين وضيق التنفس!

- وماذا نفعل؟

- بتغيير الأوضاع ووضع حد للحروب العبيثة المشتعلة الطويلة!

- أنتم تعلمون أن تحقيق أمن الإنسان ليس بقدرتنا!

- لن يتمثل أبوك للشفاء حتى يعود إليه أحبابه!

- هذه العودة مستحيلة، إخوتي وأخواتي وزوجي قد اغتيلت حياتهم! ولم نعد نراهم ونتمتع بحنانهم!

ترى سامية أباهما وقد انتعشت نفسيته، تطمئن لوضعه وتخرجه من المستشفى، ذاهبة به إلى المنزل.

ونحن نتحدث في مختلف شؤون الحياة، ينادي الأب على ولديه عادل وطالب. يستبد الخوف بسامية أن يعود الأب إلى خطورة حالته الصحية مرة أخرى. يعلو نداء الأب:

- يا عادل، يا طالب، تعالا إلى أبيكما! أريد أن أراكما! اشتقت إليكما! وإلى ضمكما إلى صدري أيها الحبيبان! عودا إلي بعض الوقت، فقد اشتقت إلى أمكما.

سامية لا تعرف ماذا تفعل؟ تطلب من الدموع أن تنهمر لتشعر بالراحة، ولكن دموعها كعادتها كل مرة، تأبى أن تنقاد للنداء!

تتذكر سامية أمها وشقيقاتها اللاتي لا تعرف ماذا حل بهن... هن ثلاث شقيقات، ذهبن في زيارة لإحدى الصديقات، واختفت الشقيقات والصديقة بطريقة غامضة. لا يعرف أحد مصير الفتيات الأربع وماذا حل بهن؟

يعود الأب إلى استغاثته:

- يا عادل يا طالب، يا هدى يا نجوى يا شذى، تعالوا جميعاً إلى أحضان أبيكما!

تؤلم سامية عيناها، لا تريد أن تنزل الدموع من مآقيها، فتسبب لصاحبها ألماً ممضاً. أتذكر أبي وأمي وشقيقتي، كلهم غابوا في ليلة واحدة، حين رغبوا في الاحتفال بعيد ميلادي حين بلغت الخامسة من العمر. أذهب إلى الجد، عله يراني وحين أقرب منه:

- من أنت؟

- أنا ليث!

- من هو ليث؟

ينادي الأب سامية ويطلب منها أن تحضنه، يقبلها:

- سأغادركم حبيبتي! سوف أرحل بعيداً، لكنني سأشتاق إليك وإلى أخويك وشقيقتك. حين يتغير نظام الحكم في العراق، ادفنوني قرب أحبابي هناك.

تعود الابتسامة إلى أبيك المتعب، تجدينه وقد عادت له إشراقته التي تحبين. نصحك الطبيب أن تخرجيه من المستشفى، وأن يشعر معك أن حبك له لم يقل، وأن وجودك يعوضه عن فقدته لأحبابه الأولاد وحبيباته البنات.

- المال والبنون زينة الحياة الدنيا، وأبوك فقد زينة الحياة وجمالها حين خسر ما يملك من مال، وفارق أحبابه وماتت زوجته. فرحته الآن مركزة عليك، أنت ابنته الوحيدة التي بقيت، وأسيه. خففي من آلامه، وحاولي أن ينسى بحديثك معه كل الأحداث المؤلمة التي مرت!

تمتثلين لنصائح الطبيب وتخرجين أباك من المستشفى، علّ

الخروج يعيد أباك القوي الحنون، وينسيكما أحزان أرواح
أدمتها طول الحرمان، وأوجعها رحيل الأحبة بلا ذنب. سوف
تحاولين أن تذكريه بالماضي السعيد. كنت الطفلة السعيدة
المدللة، التي تحرص دائماً أن يصحبها أبوها معه في زيارة
أحد أصدقائه، أم في الخروج للتنزه أم للتسوق. كنت الصغيرة
الذكية التي تحب أن تقلد الكبار بأسلوب يبعث الفرحه ويأتي
بالسرور. أبوك ليس لديك أحد غيره، كان المحب الصادق الذي
يحنو عليك أمام غوائل الزمن، وبقي الصدر الحنون حين
أدركت أن اختيارك لرفيق الحياة كان خطأ كبيراً، وأنه لم
يناسبك أبداً. فطباعكما متباينة، وصفاتكما متناقضة. كان نصير
يسمك الكلمة الجارحة. تساءلت في البداية: هل كان يقصد
إيذاءك؟ أم أنه كان متعوداً على قول الكلمة الخادشة بدون
تفكير؟ كلمات نصير الكثيرة كانت تجرح نفسك المرهفة،
وتدمي قلبك المحب. وأبوك الحنون كان يقف بجانبك، محاولاً
أن يخفف عنك المعاناة:

- نصير إنسان يملك الصفات الحسان، انظري إلى الجانب
المضيء يا ابنتي.

- أحاول ذلك يا أبي! لماذا اخترته؟ أليس لأنني رأيت
الجانب المنير؟

ترتسم البسمة على محيا أبيك المتعب، وتعود الفرحه إليك.
الفرحة علمك أبوك كيف يمكنك أن تصنعها. ينصحك بأن
تكوني إيجابية وأن لا تدعي التشاؤم يستولي على نفسك:

- التفاؤل يحقق النجاح، والتشاؤم يجلب الإخفاق!

أنت ابنة أبيك البارة، تقومين دائماً بتنفيذ نصائحه الذهبية.
الليلة تجدين أباك في صفاء فارقه منذ زمن طويل. نادى أحبته
أن يقتربوا منه:

- عادل يا حبيبي تعال إلي، اصحب معك شقيقك طالب. أنت ولدي الكبير، قل لأخواتك أن يأتين إلي. أنا أشتاق إليكم أحبتي، أنتم أحباب القلب يا أولادي وبناتي. فارقتموني يا أحباب، فلم تستطع أمكم الصبر على ألم البعاد عنكم. أنتم أحبابها، أنتم من جعلها تتحمل كل الآلام. سوف تسعدون روحها إن أتيتم هذه الليلة!

يبتسم أبوك تلك الابتسامة العريضة التي تميزه:

- حان الألوان حبيبتي سامية، أنت من سوف يقوم بالمهمة التي لم أستطع إنجازها!

- كن واثقاً يا أبي!

- سأرحل يا ابنتي، سألحق بأمكم. استفسري عن مصير أخواتك وشقيقك. ضعيني مع الأحباب في وطني!

الفصل الخامس

يرحل الأب الحنون بصمت، تنقب قلبه الكبير الهزائم والنكبات التي مرت به، وتركته مثنى الجراح مكلوماً، وقد أفقدوه الأحباب. سامية تشعر باليتم وأنها ضعيفة بعد تلك القوة التي شهد بها الأعداء والأصحاب. تبقى الابنة البارة عاجزة عن تنفيذ وصية أبيها. من يستطيع السفر الآن إلى العراق، وقد أغلقت أبوابه وسدت منافذه أمام أبنائه الطيبين؟ أحبوه ملء القلب وبكل ذرة من كيانه، وخدموه بشبابهم، وقدموا له التضحيات الجسام من أجل أن يعيش مرفوع الهامة. ولكن وأسفاه! ما كل ما يتمنى المرء يدركه! آلاف الضحايا يمضون بلا هدف، يحلمون أن يفيدوا الوطن الجريح، ولكن هيهات.

في المدرسة، أعطتها المديرية إجازة لوفاة والدها. زارتها الزميلات معزيات، وأرسلت وكالة الثانوية رسالة مع إحدى الزميلات بوجوب عدم التأخير. فالابن مات، وسامية يجب أن

تقوم بواجبها خيراً في أعقاب رحيل الأب. وأن عليها أن تحت طالباتها على الدفاع عن الوطن بالريشة والألوان، وأن الوكيله لن تسكت بعد اليوم إن وجدت تقاعساً وابتعاداً عن الواجب.

ينصحها الأصدقاء الباقون في الكويت أن عليها أن تسرع بالمغادرة، وإلا نفذت وكيلة الثانوية وعيدها، وفشت أمر سامية وأسرتها الضحية إلى المسؤولين في السفارة، ليتخذوا العقاب المناسب، كي تكون الرسامة المستهينة بواجبها درساً مفيداً وقوياً لمن لا يرعوي.

تبيع سامية ما استطاعت من أثاث، وجمعت بعض الملابس التي لا يمكن الاستغناء عنها. وأوصت صديقة لها أن تبيع ما تستطيع من أثاث وأغراض لمن يحب أن يشتري، وأن تعطي ما لا يشتري لمن يحتاج من أثاث وأدوات مطبخ وأواني. أخذت سامية معها بعض اللوحات المشهورة، ولم تستطع أن تحمل معها كل الرسومات والبورترية، وتخلصت من أغلب ملابسها:

- مسموح لك عشرون كيلو غراماً فقط، وليث مسموح له عشرون.

- كم لنا أن نحمل؟

- أربعون كيلو غراماً فقط، خذا الضرورات فقط. في بلغاريا كل ما تحبان من أشياء.

صور الوالد وكتبه العزيزة أودعتها سامية لدى بعض الصديقات:

- سوف أكتب لك من صوفيا طالبة منك أن ترسلي كتب أبي وصوره!

يودعها إلى المطار بعض الأصدقاء والصديقات. تتخلف

عن توديع الفنانة المرموقة زميلاتنا في ثانوية الأمل، اللاتي يرسلن لها اعتذارهن:

- وكيلة الثانوية لم تسمح لنا، قالت إنها ستشكونا إلى السفارة إن قمنا بتوديع الفنانة المارقة!

- من هي المارقة؟

- إنها أنت يا سامية، لا أدري لماذا تمقتك هذه الوكيلة!

* * *

تشعرين باليتم، وأن قوتك مهدورة، إرادتك ناقصة. تفكرين أنك بقيت وحيدة في معترك الحياة. كل كلمات التعازي والمواساة التي تتلقينها من المعارف والأصدقاء لم تستطع أن تخفف عنك جبال الحزن الجاثمة فوق صدرك. رحل أبوك الحنون، من يحن على شبابك الضائع وحياتك المسلوقة؟ من يخفف عنك جراح القلب الفاعرة فاهاً، تريد أن تلتهمك؟ شعرت أنك تحملين ظلم العالم، وأنه ما من قوة بمقدورها أن تبدد دياجير الظلم التي تستبد بك. رحل الإنسان الذي اعتمدت عليه، وكان نعم الصديق والأخ. كان كل العواطف، يزيل عنك عثرات الطريق، ويخفف بمحبته أطناناً من الخوف والشعور بأن الدنيا تضحك عليك، وتريك وجهها الغادر. زارتك زميلاتك في الثانوية، وقلن لك كلمات مواسية، فلم تسمعي ما ذكرت الزميلات من كلمات. هل تستطيع أي كلمات أن تبدد عنك ما تشعرين من ضياع؟ طرق حياتك لا دليل فيها، يهديك إلى الطريق الصائب. كل الطرق تودي بك إلى التيه. أنت تائهة في خضم هائل من الأحزان. تخبرك زميلاتك أن وكيلة الثانوية تتوعدك أن تعودن إلى الصراط الصحيح الذي رسموه لك، وإلا فالويل لك إن استمر عنادك. فقد رحل من كان يمنع عنك

السوء. تزورك الجارات متحدثات عن مناقب الوالد الحبيب، ناصحات أن تسارعي بالرحيل، فلسن قادرات أن يمنعن الضرر إن قصدك. توافقين على النصيحة. في بلغاريا عندك أصدقاء وصديقات عرفت أن الإخلاص معدنهم. تقررين أن تسافري إلى هناك، علَّ جراح الفقد تندمل. تجمعين ما تقدرين على جمعه من ملابس ولوحات، ومن كتب ليث وملابسه، وتودعين صور الوالد وكتبه العزيزة لدى صديقتك نجلاء. تخبرينها أنك حين تستقرين في بلاد الغرب، سوف ترسلين إليها طالبة كتب أبيك وصوره. تخبرك الصديقة إنها على استعداد لتنفيذ ما تحبين، وأن كل أثاث المنزل التي تملكين سوف تعرض للبيع وسوف ترسل إليك ثمنها:

- الأثاث الذي لا يشتريه أحد أهديه لمن يحتاج.

في المنزل الذي سوف تغادرينه ذكريات لك جميلة. عاش الوالد الحبيب هنا، حققت نجاحك في التدريس وفي الفن. سوف تتركين كل شيء هنا. كيف تأخذين معك الكرسي الذي كان يجلس عليه الوالد؟ والمكتبة التي صنعها الوالد بيديه، والعود الذي كان الوالد يحبه ويعزف عليه أجمل الألحان؟ صور الوالد التي جلبها من بغداد وفيها تظهر والدتك وشقيقاك وشقيقاتك. كل مظاهر الفرح التي كنت تعيشين في ظلالها، حفظها أبوك في الصور. عدد من الألبومات أبوك كان يعتز بها، فهي تحفظ حياة الأسرة السعيدة التي كانت، وجاء المعتدون فاغتالوا أفراد أسرتك وقضوا على الرغبة في الاستمرار عند أشخاص أخطأهم الموت. أبقاهم الطغاة كي يعيشوا الحزن والفقد بأبشع صورهما.

تشاهددين الصور، عدد من حيوات الأعزاء انطوت في لحظة واحدة، وخبا بريقها. كيف يُقضى على إرادة إنسان كله

حياة؟ عرف الطغاة أن اغتيال الأحباب يجعل الإنسان يشعر أنه ميت. يدعو الله أن يستجيب للدعاء وأن يميته، ولكن الله لم يمت أحبابك الراحلين! الله رحيم لا يوجه للمرء طعنات قاتلة إن لم تقتله، فإنها تميت كل رغبة له في مواصلة الحياة.

تغادرك الجارات والزميلات. تشعرين أن العالم يضيق بك، وأنه ما من أحد بقي بجانبك. فهل ستجدين حياتك المفقودة في بلاد بعيدة عنك؟ هل تستطيعين أن تبني من جديد؟ فيك إصرار عجيب، لا يمكن لأي قوة أن تقضي عليه. غرس الوالد فيك حب الحياة والرغبة في النضال من أجل تحسين ظروفها. وأنت الابنة البارة بأبيك الراحل، سوف تحافظين على إرثه العزيز أن يتبدد ويضيع، وسوف تحاولين أن تنفذي وصيته.

* * *

سافرت سامية رغم أنفها. تركت ثانوية الأمل التي أحببتها من كل قلبها لأنها المدرسة التي احتضنتها حين غادرت العراق مضطرة، وشهدت نجاحاتها في مضمار التدريس. أحببت كل الثانوية بإدارتها الحكيمة ومدرساتها الوفيات العاملات بإخلاص يشهد له كل الناس. وأحبت الطالبات المجتهدات اللاتي حرصن على التفوق في كل المواد العلمية والأدبية والفنية. وأنا غادرت مدرستي التكميلية التي تتضمن كل المراحل الدراسية. قضيت فيها سنين الابتدائية وسنوات المتوسطة.... شهدت مدرستي التكميلية سنين طفولتي الأولى وصباي، ترعرعت في حدائقها الغناء ونشأت بين طلابها وأساتذتها الذين أحبوني وعلموني كل ما كان ينفعني من علوم وآداب.

لم تعد سامية تلك الإنسانية التي تملكها الفرحة حين جاءت

إلى أوروبا قبل شهر، للراحة والعمل وعرض اللوحات الفنية التي أثارت إعجاب المتلقين. سامية اختلقت كثيراً عما كانت عليه في الرحلة السابقة. لم تعرف ابتسامتها كيف تعود إلى وجهها الصبوح. غادرها الفرح بعد أن طرق بابها، ولم يجد من يستقبله بترحاب. نظرت إلى سامية الحبيبة وقد غطت علامات الحزن ووجهها وكل أجزاء جسدها الذي كنت أرنو إلى امتلاكه وأنا أخفي تلك الرغبة في أعماق قلبي المفجوع. سامية التي أحبها كل من عرفها، فهي رائعة الشكل والفكر، جميلة الروح هادئة الطباع. أجدها اليوم وقد علتها الغصة. الحرمان العاطفي رسم أخايدته بدقة وعنف. تمنيت أن أضمرها إلى صدري، ولكنني خجلت! ولماذا يعتريني الحياء وهي المرأة التي ربنتي واعتنت بي، وتعهدتني بالرعاية والاهتمام حتى تحولت من الطفولة إلى الشباب؟ لماذا أتركها وحيدة تعاني حرمان الحنان، وتشتكى جراح الروح؟ لماذا أخشى أن أقبل جبينها شاكرًا ومخففًا من الألم الذي تعيشه؟ لماذا أشعر بالعجز وأنا أرى حبيبتي تنوح وحيدة تكلّي، غادرها الأحباب مرغمين في رحلة اللاعودة؟ لماذا يا ليث تقف بعيداً عن مد يدك لإنقاذ الحبيبة من أحزانها؟ يا ليتني أنسى عشقي لها، أخاف أن أعبر لها عن شديد ولعي وكبر هيامي، فستكره هذا الإحساس الجديد مني. كنت طفلها، فكيف أطمح أن أتحوّل إلى رجلها، وبعد أن فقدت كل الأحباب؟ هل أخبرها عن عشقي لها وهي التي جعلتني ابنها، وعاملتني راعية لي رعاية الأمهات؟ سوف أنتظر اللحظة المناسبة كي أبوح لحبيبتي بحديث العشق. سأؤجل ما عزمت على إعلانه إلى لحظة سرور وغبطة أجدها مرتسمة على وجه حبيبتي، فأعلن لها عن حبي الذي حرصت على كتمانها عنها، منذ أن كنت طفلاً حلمت بها، وبعد أن أصبحت صبيّاً قوي حلمي بها واشتد. وها أني أوشك على

الشباب. هل أقوى على الاحتلام بدلاً عن البوح لمحبوبي الأثيرة؟ وهل يجرؤ عشاقها على البوح بعشقهم لهذه المرأة الفاتنة إن وجدوني أقوى محبة لسامية؟ حتى الدكتور خليل العبيدي، العاشق الأثير لسامية والذي يعرف بقصة عشقه الكثيرون، أجد أن عشقي للحبيبة يبزهم جميعاً. بعد أيام ستقيم سامية احتفالاً بمناسبة بلوغي الثامنة عشرة، وسوف يكون من حقي أن أبوح بمشاعر قد جاهدت نفسي كثيراً لإخفائها!

نصل إلى صوفيا، وكان الدكتور خليل العبيدي قد جهز كل شيء. استأجر مسكناً مناسباً لسامية ولي، واتفق مع مديرة مؤسسة تعليمية في صوفيا أن تقوم سامية بتدريس الفنون التشكيلية لطلابها بأجرة مناسبة. وسامية لا تحتاج إلى وساطات، فقد كونت لها شهرة كبيرة بسفرتها الماضية واستطاعت أن تحظى بإعجاب الناس الأوروبيين وتقديرهم.

* * *

ترحلين عن البلاد التي أوتك، حين وصلتها مغادرة وطنك مضطرة. ترحلين والجراح تملأ قلبك وعقلك. فكرك محصور بنقطة واحدة، أنك يتيمة الآن. فقدت ينبوع الحب والحنان وغادرت الثانوية التي شهدت نجاحك المنقطع النظير. أخبرك الدكتور خليل أنه اتفق مع إحدى المؤسسات التعليمية أن تقومي بتدريس الطلاب مادة الفنون التشكيلية. وقد فرحت بهذا النبأ، ولكن من يضمن أنك سوف تصلين إلى تحقيق النجاح ذاته الذي توصلت إليه في الكويت بجهودك وتفانيك، وكان أبوك المشجع لك في كل خطواتك؟ كل أمر يمر بك، تقومين بإخبار أبيك عنه، فيقوم الأب الحكيم بتحليل الأمر وتبيان ما فيه من جوانب إيجابية وأخرى سلبية، فيحثك على تعزيز الإيجابية

منها والابتعاد حسب الإمكان عن السلبية. واستطعت أن تحققى بفضل توجيه أبيك الكثير من النجاحات، واكتسبتى العديد من القلوب. بعضهم لم يعرفك منذ البداية فوقف مناوئاً لك محارباً ما تقومين به من نشاط، وحين عرفوا الحقيقة عنك، وأنت طيبة تحبين الطيبين وتساعدينهم، تغيروا وأصبحوا متضامنين معك. أبوك كان يعلمك كيف تكسبين قلوب الناس وتظفرين بتأييدهم. رحل أبوك وتركك شبه عاجزة. هل تقومين بسيرتك نفسها، والناس ليسوا أنفسهم الذين تعرفينهم، واللغة غريبة عنك؟ صحيح أنك تعرفين بعض الكلمات التي يرددها البلغار، لكنك جاهلة بمدلولات الكلمة ومعانيها. تحتاجين إلى وقت طويل كي تعتادي على الحياة الجديدة التي تنتظرك. وعليك الاعتماد على نفسك في تدبير أمور الحياة والعناية بالاقتصاد الذي هو شريان الحياة. من يمكن أن يساعدك في تدبير أمورك المعاشية وأبوك قد غادرك بلا عودة؟ وأنت معروفة بالإباء والشمم، فهل تطلبين مساعدة الأصدقاء في أمور المال أيضاً؟ عليك أن تقودي دفة السفينة منذ وصولك إلى صوفيا. يكفي ما قدمه الدكتور خليل لك من رائع الأعمال، وهو ينتظر منك عرفاناً وشعوراً متبادلاً. ولكنك تخشين أن تقدمي قلبك لرجل يصرح دائماً أنه يحبك، وأعماله تشهد أنه صدوق. لقد جربت الحب مرة، ولن تعودى إلى تجربته مرة ثانية، لئلا تندمي ولا حين مندم. تشعرين أنك مقصرة في حق صديقك الوفي، وحين تقررين أن تبادليه الشعور نفسه، تتبع أمامك قصة فشلك القديم وقصة الإهانات والذل التي أذاقها لك حبيبك الراحل. تلاحظين أن ليثاً يحبك، في نظراته عشق مكتوم. تصرفاته معك تنبئك أنه مُغرم بك. ورغم أنك قمت بتربيته ورعايته وقدمت له حب الأم، فإن نظرات عينيه لا يمكن أن تفسرهما خطأ عيناك. ما بالك تتحدثين عن قصص الغرام وقد آليت على نفسك أن

تتناسي هذه القصص؟ يكفيك لوحات وآهات مررت بها، شهدت نجوم الظهر وهن يضحكن على خيبتك العديدات. هل تقمعين رغبتك المستعرة في وجود رجل بجانبك، يحول جليد حياتك إلى دفء، ويحول صحراءك إلى حديقة غناء، ويجلب لك السعادة حين يحضنك بساعديه القويتين، ويطفىئ لهيب أنوثتك الزامئة إلى أحضان رجل يعرف كيف يعزف أجمل الألحان على جسدك؟ ظمأ كبير وحاجة إلى الإشباع ورغبة بالإرواء.

أجلت كل شيء ، قمعت النار المشتعلة في أعماقك ، منتظرة أن يكبر ليث ويعرف قيمتك كامرأة تطلب الدفء كما عرفك أما منحتة الحب والحنان ، تحبين خليلاً وتخشين أن يفعل بك ما قام به الراحل ، تحاولين أن تحبي ليث كما تحب المرأة رجلها ، تقرئين كتاباً في الحب الجنسي وتقومين بالتمارين التي به ، وشعور الحب يأتيك ؟ كيف استطعت أن تجلبي الرغبة بأقصى حالاتها وأنت المحرومة إلى من يرويك منذ قرون ؟

* * *

تبدأ سامية عملها في المدرسة الجديدة. لم تكن ثانوية فقط مثل مدرستها السابقة، بل كانت مدرسة تكميلية لكل المراحل: الابتدائية والمتوسطة والثانوية. تُدرس المواد بهذه المدرسة بثلاث لغات: الإنجليزية والفرنسية واللغة الأم لهذه البلاد. ويُعطى للطلاب العرب دروس في اللغة العربية وآدابها من قبل أستاذة عرب، ولا يُوجِبون الاختصاص. كل من يرى نفسه يجيد اللغة العربية وقادراً على تعليمها، يُقبل معلماً في هذه المدرسة. أخبر الدكتور خليل العبيدي سامية:

- سيكون عملك في هذه المدرسة مؤقتاً، حتى تتمكني من إتقان اللغة الأم. وحينئذ نقدم لك للعمل في إحدى الثانويات،

ولن تكون خاصة للطالبات، بل ثانويات بلغاريا لكلا الجنسين.
تفرح سامية لحصولها على عمل، فهي لا تحب حياة البطالة
التي جربتها أياماً قليلة قبل أن يُقبل طلبها للعمل في ثانوية
الأمل في الكويت.

تعود إلى أعمالها الفنية التي تركتها بعد أن فُجعت ب وفاة
والدها. جميع لوحاتها تعبر عن لوحة الحرمان، عن أشخاص
يرحلون بسبب عدم تحملهم الاستمرار في حياة تخلو من
الدفع والمحبة. رحيل الوالد مفجوعاً بأبنائه، وشعوره ببرد لا
يمكن أن يزول، يجعل سامية ترسم الأشخاص المقرورين الذين
يحبون الناس بعمق ولا يجدون من يبادلهم الحب. الدكتور
خليل العبيدي يقدم ما يستطيع لجعل الابتسامة تعود إلى سامية
الحزينة. يفتح قلبه المتيماً لترى الحبيبة مدى حبه لها واستعداده
لجعلها سعيدة إن وافقت على مشاركته الحياة.

أظن أنا عاجزاً عن التعبير لسامية عما يغلي داخل نفسي
الولهي، وقلبي الذي تتربع على عرشه الحبيبة سامية. أفكر
دائماً أن أقول بعض الكلمات التي أخبرها للتعبير عن شدة
وجدي ولوعتي، وأرى سامية كبيرة الاعتزاز بي، لا تترك
مناسبة إلا وتستغلها للتعبير عن مدى حبها لشخصي.

تبدأ سامية استعدادها للاحتفال بمولدي. بعد أيام أبلغ الثامنة
عشرة من عمري، وقد دعت سامية أحبابها ومعارفها في هذا
البلد الأوروبي لحضور حفل عيد ميلادي. أتذكر ذلك الحفل
الحزين حين فقدت أبي وأمي وكل أفراد أسرتي. ورغم أن
سامية واصلت الاحتفال بهذه المناسبة، إلا أنني أتذكر دائماً تلك
الأمسية الأليمة، وإن أصبحت ذكرى الأحداث الماضية لا
تحمل لي الألم الممض الذي كان.

تجهز سامية الحلوى بأنواعها المختلفة وفناني البيرة والنيبذ،

وأنا أخفيت لي ثلاث علب من السجائر التي منعتني سامية من الاقتراب منها:

- إنها تضرك يا حبيبي، الأفضل أن تبتعد عنها!

الدكتور خليل ساعد سامية الأيمن يقدم لها ما استطاع. تلجأ إلى معونته في كل الأمور. هو اقترح عليها أن تدعو للمناسبة أصدقاء لها لم تكن سامية تعرف أنهم موجودون في صوفيا:

- ليكن الاحتفال عراقياً بامتياز!

* * *

تقومين بالعمل في المدرسة الجديدة التي وفرها لك صديقك الوفي. تجدين أن العمل في أوروبا يختلف كثيراً عن عملك السابق في ثانوية الأمل التي تحبين. في ثانوية الأمل كانت الهيئة التدريسية من المدرسات فقط، والطالبات كن بنات، وكانت اللغة التي تتفاهمين بها هي العربية التي تجيدونها بدقة. فقد كنت متفوقة في لغتك الأم حين كنت طالبة. أما في بلغاريا فإن الأساتذة بعضهم رجال والبعض الآخر نساء، والطلاب أيضاً من الجنسين. لم تتقني لغة مواطني البلد الذي أتيت إليه إتقاناً كاملاً. حين تسمعين الأساتذة يتحدثون مع بعضهم البعض، تبقين عاجزة عن فهم مدلول ما يقولون. شكوت متاعبك في فهم اللغة لصديقك العزيز الدكتور خليل:

- من الطبيعي أنك تصادفين المتاعب في فهم اللغة وتوصيل المعلومة في بداية عملك هنا. بمرور الوقت وكثرة المران تستطيعين أن تتغلبى على كل المصاعب التي تعيشينها الآن.

يأتي كلام الدكتور خليل مطمئناً لك. اعتدت كلماته التي تحمل إليك الثقة بنفسك وقدرتك على اجتياز الصعاب. لم

تتمكنني في البداية أن تكوني لك أصدقاء في المدرسة. الشواغر بين درس وآخر تقضينه في الإعداد لدرسك القادم. حققت شهرة واسعة كونك فنانة كبيرة تعبر بفننها التشكيلي عن قضايا الإنسان المظلوم والعنف الذي يواجهه محاولاً التغلب عليه. في المدرسة لم تتمكني أن تجعلي الطلاب قريبين منك كما كانت طالباتك في ثانوية الأمل. فاهتمامات الشباب في عمر طلاب الثانوية تختلف كثيراً. ففي بلد عربي مثل الكويت فيه حركة تقدمية كبيرة ومهمة على صعيد العالم العربي، والطالبات العربيات لهن اهتماماتهن التي لا تجدونها عند الطالب الأوروبي وحتى الذي ينحدر من أصول عربية وإسلامية. زميلاتك الجدد لم تعاني إحداهن من التكتّم على عواطفها حين تنبع مشاعرهما كشلال ينبعث منه الجمال. الفتاة الأوروبية تلقى الحب وهي ترحب بعاطفة تحمل إليها السعادة، فهي تعيش مشاعر الحب حتى ثمالتها، ولا ترغم نفسها على وأد عاطفة الحب من قبل اندلاعها وكأنها من الأمور المعيبة التي يجدر بالإنسان العاقل أن يبتعد عنها. طمأنك الدكتور خليل أنك تستطيعين أن تتجاوزي هذه الفترة التي تشعرين فيها أنك غير قادرة على الاندماج في المجتمع الجديد والتكيف معه:

- أنك إنسانة عربية مسلمة، عشت زمناً في العراق ولم تعيشي الحياة كما ينبغي. جميعنا العراقيين توجد رغبات داخل أنفسنا اضطررنا على قمعها بسبب البيئة التي عشناها.

نتهيئين للاحتفال الكبير الذي سوف تقيمينه لعزيرك ليث، فقد بلغ سن الشباب.

الفصل السادس

اقترب حفل الميلاد، وابتدأ احتفال سامية العزيزة بعيد ميلادي. بدت ملأى بالفرح والسرور وهي تعانقني مهنئة بالعيد، آملة أن تهل علينا أيام البهجة، وأن تكون أيامنا أفراحاً متواصلة، وننهل من ربيع الدنيا التي تفتح ذراعيها مرحبة وباشة بنا. صبت لها كأساً من البيرة، وناولتني كأساً من النبيذ:

- في صحة حبيبي!

- في صحتك!

تفتح جهاز التسجيل على أغنية تعشق سماعها، ترقص بفرح غامر:

- أي رقصة تريدني أن أرقصها لك حبيبي؟ هل تحب نجوى فؤاد أم سهير زكي، أم سامية جمال؟

- كلهن فائنات يجدن الرقص.

- سوف أكون لك ما تحب حبيبي الوسيم!

لم أرَ سامية بهذا العنفوان. أخذت ترقص وتتمايل فرحةً بالعيد الذي وصلته هذه الليلة. صوت الأنغام يدعو إلى الرقص الجميل، وسامية تتقن كل الأمور التي تبعث على النشوة والجمال. تقبلني طويلاً وكانت قبلاتها لي قصيرة قبل أن أبلغ سن الشباب. تدعوني إلى مشاركتها الرقص. حين أعود إلى مكاني، تنضو عنها الثقل من ملابسها. أجد أنها ساحرة الجمال. كم تمنيت أن أعبر لها عن شديد حبي، وعن ولهي بها وقوة هيامي. لكنني كنت أتردد دائماً فهي المرأة التي اعتبرتني ابناً لها وأنقذت حياتي من موت مؤكد. هي الليلة تعبر لي عن عشقها الشديد.

تحضنني في رقصة بطيئة على أنغام موسيقى هادئة. نسير ببطء متلاحمين. فجأة أشعر بها تضغط بعضوها على عضوي. كنت دائماً أتحين هذه الفرصة وأتمنى وصولها. وها أن الفاكهة التي ظننتها محرمة علي تدنو بثمرتها الشهية نحوي، فتجعاني أطير في دنيا الجمال والمتعة. نحن المحرومين من لذات الحياة وجدنا أنفسنا نبحر في نشوتها. ثلاث عشرة سنة بقيت سامية محرومة من الحب، وانتظرت أن يبلغ حبيبها سن الشباب لتحقق ما تمنته طويلاً. وأنا الطفل المحروم من الأبوين والأخوة والأخوات، وجدت تفاحة ناضجة تنادينني، فلبيت النداء وأنا في قمة السعادة. سبحان الله الذي يطعمنا ما نحلم به من لذات الدنيا، ونقبل على نعمه ونحن نحمده:

- سنكون معاً طوال العمر حبيبي!

- نحن لبعضنا البعض حبيبتي الرائعة.

- كم أعشقتك أيها الجميل.

نظل متعانقين حتى الصباح ونحن نحلم أن سعادتنا خالدة لا
يمكن أن تزول.

* * *

في عيد ميلاد عزيزك ليث، تستعدين أن تجلبي الفرحة إلى
قلبك الذي أضناه طول الحرمان. تجهزين للاحتفال، وتهئين
كل شيء لجعل الحفلة في منتهى الجمال. تشتري قناني البيرة
والنبيذ، وتوجهين الدعوة للأصدقاء كي يشاركوك الفرح،
ويشهدون أنك استطعت أن تصنعي الحب بأعماق امرأة عاشت
تتطلع إلى تجد صنوها في الحياة. وانتظرت وصبرت حتى
استحال الطفل شاباً قوياً ممتلئاً بالأمنيات، ومستعداً لغرس بذور
الحب في صحراء قاحلة عاشت أياماً جديبة. فتى المعشوق
أصبح رجلاً جعلت قلبك المحروم يمتلئ عشقاً له ومحبة.
أدركت بعد حياة مريرة أن كل شيء يمكن صنعه، وأنت
حاولت أن يكون الحب ينبوعاً من الدفء والظلال، ولكنك
أخفقت في مرادك. وهذا الرجل الوسيم ينظر إليك نظرات
العشق والهيام، فهل تجرحين قلبه وهو يتفتح كما تتفتح الورود
بعد أن تُبذر في تربة خصبة ويعتنى بها ويتم إرواؤها؟ هذا
يومك، ترقصين فيه وتمرحين. تقومين برقصاتك وأنت جذلى.
تسألين الحبيب أي نوع من الرقصات يريد؟

- كل أنواع الرقصات تعجبني؟

- هل تفضل نجوى فؤاد أم سهير زكي أم سامية جمال؟ أم
غيرهن وهن كثيرات؟

- أحب الجمال بكل صنوفه، وأهوى الجمان على الصدور
الناهدة!

بلغ حبيبك سن الرجال، وأصبح يتطلع إلى امتلاك الجمال،
والتمتع بأنواع الحسن والدلال. فهل يفضل رجلك امرأة حسناء
تعنى بجمالها الفتان؟ أم تستهويه المرأة القوية الشجاعة التي
تمتلك إرادة قوية وشجاعة وفكراً؟ وجسماً جميلاً وخصراً؟

توجهين دعواتك العديدة إلى ليث كي يشاركك الرقص،
وينظر إليك المدعوون بانبهار. تشعرين بالحياء وتخشين أن
تخسري أصدقاءك الذين عرفت إخلاصهم. توقفين رقصك مع
ليث بعض الوقت. يمضي الجميع إلى منازلهم، وتبقين توجهين
دعواتك للشباب الجميل كي يرقص معك. تختارين اللحن
الهادئ لترقصي عليه وأنتما تحضنان بعضكما. لا تعرفين
كيف قادتك حركاتك إلى أن تضغطي على موضع الذكورة
بعضو الأنثى، فتجدين أن رجلك قد رحب بالخطوة الجريئة
منك، وزاد التصاقه بك:

- أحبك، أحبك، أحبك! أحبك!

- أعشقتك أيها الرجل الوسيم!

- أنت ملاكي وملكتي وحياتي.

تطيلان الليل على الألحان الجميلة وصوت أم كلثوم وهي
تنادي حبيبها أن يمكث معها طول الليل، وحتى انبثاق النهار
القادم. تنامان متعانقتين وأنتما تشربان نخب السعادة حتى
ثمالتها. نسيت كل ليااليك المسهدة. لم تتذكرى إخفاقاتك في عالم
الحب، وأنت تحضنين ليث بكل قوتك وإصرارك على أن
تعيشي العشق ولا تحرمي نفسك من لذاته.. لم تعتادي على
الفرح الذي يبعد النوم عن العينين. كان سهرك حزناً وشعوراً
بالوحدة والغربة في هذا العالم. فلتجربي النوع الجديد الذي
يسعى إليه عاشقو الحياة وطالبو جمالها والتمتع بالوصال.

* * *

نعيش أحلى الأيام ونكون أسرة متآلفة. لم نكن نحلم أننا سوف ننجح في الوصول إليها. سامية العزيزة تتكفل بكل المصاريف، فأنا رغم دخلي المتواضع وعدم رغبتني في العمل المتواصل الذي يبعث في نفسي السأم، والراتب الضئيل الذي أستلمه آخر الشهر، مبذر. أأدخن وأتناول الكثير من المشروبات الروحية، ولم تفلح سامية بكل نصائحها للحفاظ على الصحة البدنية والنفسية والتقليل من خطر المشروبات. فلقد اكتشفت مؤخراً أنني أضحيت أقوم بعمل مضاد لنصائح زوجتي. لست أدري لماذا؟ هل هي الجينات الوراثية التي اكتسبتها من أجدادي الأولين، والذين لم أرهم؟ أذكر والديّ الاثنين، وأنهما كانا يحترمان بعضهما البعض، وكان أبي يحب أمي ويقدرها حق قدرها:

- المرأة وردة الحياة، والأم عطر الورود وأريجها!

كثيراً ما أفكر بنفسي، ولم أنا أتصرف عكس الأفكار التي أرددها كالبيغاء؟ يقول لي أصدقائي حين نتحدث عن معاملة النساء بالحسنى والعمل على تحقيق المساواة بيننا وبينهن، إن هذه الأفكار مجرد كلام نقوله ونعمل على النقيض منه. يقول لي الأصدقاء المتتورون الذين غادروا العراق هروباً من الاضطهاد:

- لا يمكن أن نساوي أنفسنا بالنساء! هن يقمن بأعمال المنزل ويتسوقن، ويحملن ويلدن، ويقمن بالأعباء التي تتطلبها تربية الأطفال، ويخرجن إلى العمل ويتقن أعمالهن كي يحققن المساواة. أي حماقة تجعلنا نضحى بالمكتسبات التي حققها تسلط الرجال طيلة آلاف السنين؟ هل من أجل سواد عين امرأة زعمنا لها أننا وقعنا في تلابيبها؟ هل يمكن للرجل أن يعشق مثل المرأة؟ إنهن يتركن كل ما حصلن عليه من حقوق،

ويجري وراء رجل ادعى أنه يحبهن... المرأة مهما كانت
ولأية مكانة استطاعت أن تصل إليها، لا تستطيع أن تقاوم كلمة
تنطلق من فم رجل في لحظة:
- أحبك.

الرجل ينسى ما عبر عنه وقد لا يعنيه، والمرأة تظل معلقة
بتلك الكلمة وكأنها قيد ذهبي طوق عنقها إلى آخر الحياة.

وأنا نفسي الذي كنت أعشق سامية ولا أجرؤ على التصريح
بحبي لها، سرعان ما تغيرت، وأصبحت أكلفها بأقصى الأشغال
وأصعبها، وهي تتحمل صاغرة، ولا تنطق أي كلمة تدل على
رفضها لمعاملتي التي لم أكن أتوقع أنني أقوم بها نحو سامية
المعشوقة. والتي اكتشفت بعد زواجي منها أن جميع أصدقائها
كانوا يبتنون آمانياتهم داخل قلوبهم أن تكون سامية من
نصيبيهم. ولم يستطع أحد أن يعبر عن مدى حبه لهذه المخلوقة
التي كنت أراها ملاكاً إلا الدكتور خليل العبيدي، الذي غبطني
على حبها لي ثم قدم لي التهاني والتبريكات.

منحنا الله شهداً حبيبة القلب التي تعلقت بها سامية وحققت
لها كل ما تمنته من الدنيا وهي الطفلة الصغيرة. فكانت الحبيبة
شهد تقدم الشكر لأُمها، فتقوم بتقبيلي. ولم أجد سامية ناقمة على
هذا التصرف من شهد، بل مضت الأيام وسامية تقدم لنا كلينا
آيات الحب، وشهد تعبر عن حبها لي، وأنا أحب الحب الذي
يقدمانه لي.

تمر السنة الثالثة على زواجكما، وأنت تعيشين في سعادة لم
تكوني تتوقعين أنك سوف تصلين إليها يوماً. ليث الحبيب
وجدت له عملاً قبل أن يبلغ الثامنة عشرة من عمره. هو يحب

عمله، لكنه ليس مثلك يتفانى في ذلك العمل. لم يغير اعتماده عليك في الأمور المالية بعد الزواج. حاجات البيت أنت تقومين بتوفيرها، وحاجات الزوج أنت أيضاً من يقوم بالإيفاء بها. لم تتذمري يوماً أنك تحملين كل الأعباء. المهم شعورك أن ليث يحبك. كلمات قليلة يتلفظ بها أحياناً عن أن النساء لا يمكن أن يبلغن شأو الرجال ومنزلتهم. لا تعرفين كيف يردد هذه الأقوال، التي تتنافى مع ما يؤمن به من أفكار تدعو للمساواة. أنتما في بلد أوروبي، يكفل للنساء حقوقهن المتساوية. فكيف تسمعين من ليث بعض الكلمات التي لا تدل على إيمانه بالمرأة وحقوقها؟ تنجبان ابنتكما العزيزة شهد في السنة الأولى بعد زواجكما. تعتنين بشهد وتحبينها أكثر من حبك لنفسك، فهي بضعة منك. توفرين لها كل ما تحتاج، وتلاعبينها، وتحرصين على إسعادها. بوجودها في حياتكما تأتي السعادة إليكما. شهد تقدر ما تهينها من أوقات مرح ولعب وشراء ما تعتقدين أنه يجعلها سعيدة، وهي تشرك حين تقدمين لها شيئاً. تذهب إلى أبيها وتقوم بتقبيله. لم تجدي هذا العمل غريباً. كل فتاة بأبيها معجبة، وأنت كنت تحبين أباك الذي كان يقوم بتوفير كل شيء لك من أجل إسعادك وإدخال الفرحة إلى نفسك. أمك كانت ربة بيت، أبوك من يقوم بتلبية ما تحتاج من أمور. قمت بدور الأب والأم معاً. يسعدك حين تتركين كل أشغالك من أجل شهد الحبيبة. تتركين رسوماتك وأعمالك المنزلية وواجباتك كمدرسة في بلد أوروبي. كل هذه الأمور تؤجلينها، وتقومين باللعب مع شهد الحبيبة، التي كثيراً ما عبرت عن عميق شكرها لك بأن تسرع إلى أبيها، وتقوم بتقبيله، وهي تضحك. لا ضير في هذا. المهم أنك تحبين ابنتك وأباها وأن كل ما يسعدهما يسعدك أيضاً. حين تجدين شهد تبكي وتطلب أن تلعب معها، وأنت مشغولة بالرسم:

- شهد تبكي، هديئها، اشترى لها اللعبة التي طلبتها حين ذهبنا إلى الأسواق.

- لحظة.

- الآن، شهد أهم من كل ما تقومين به.

تسارعين إلى إبعاد لوحتك وتقررين تأجيل إتمامها إلى حين تنتهين من إنجاز كل ما يجعل شهد هادئة. وبعد أن تتجزي أعمال المنزل، وتجهزي الطعام، الأحبة جائعون وأنت سعيدة حين يرضون عنك.

لم تسألي ليث أين يذهب بنقوده؟ ولماذا لا يساهم في مصروف البيت؟ ولماذا لا يشتري شيئاً لشهد ابنتكما معاً؟ وجدتهما سعيدين بأن تقومي أنت بكل الأعباء، واعتبرت أن إسعادهما سعادة لك. بقيت تتفانين في إرضاء ليث وإدخال السعادة إلى قلبه. لم تتذمري أو تتساءلي إلى متى أبذل الأعصاب والمال وهو لا شيء؟

مرت ثلاث سنوات وأنت سعيدة، وصلت إلى إسعاد شخصين يحبانك: ليث الحبيب، وشهد حبيبتيك وابنتك.

تمضي الأيام رتيبة، تمضني أحياناً. تحقق سامية نجاحات متواصلة في العمل المهني وفي الإبداع، وتظل ابتسامتها متألقة في البيت رغم تعدد المهام الملقة على عاتقها. لم تطلب مني يوماً أن أساعدها في الأعمال المنزلية، وكل أصدقائي المتزوجين يتذمرون من طلبات زوجاتهم التي لا تنتهي. أوافق الأصدقاء المتذمرين ولا أدري كيف يقوم سيد البيت بأعمال مخصصة للنساء فقط. صديقي الجديد الذي جاء إلى بلغاريا بعد

الحصار المفروض على العراق يخبرني أن رجولته لا تتحمل أن يقوم بغسل الأواني أو تنظيف البلاط، وأنه إذا رغب يوماً في الطهي، فإنه يطلب من زوجته أن تشتري المواد اللازمة لتلك الأكلة، وأن تحضر الأواني وتحدد مقدار الملح والزيت والطحين وكم كأس يضيف من الماء، وكم تضع من اللحوم وهل يجب أن تكون القطع كبيرة أم صغيرة الحجم.

طلبت مرة من سامية أن تعلمني كيفية طهي الطعام، وماذا تفعل له كي يكون لذيق المذاق. فجهزت لي سامية كل المواد التي يجب أن تكون في تلك الطبخة، وحددت لي المقادير. فأصابني الضجر حين وجدت أن الطبخة سوف لن تكون كما أشتهي لها:

- أكمل أنت الطبخة واغسلي الأواني!

- عرفت منذ البداية أنك لن تكمل!

- وهل هذا من اختصاصي؟

- كلا... ولم أطالبك أن تقوم به!

أبدت غضبي من سامية لأنها تجرأت ونعتتني أنني عاجز عن الطبخ، الذي يقدم عليه الكثير من الرجال:

- المرأة لا تجيد فن الطهي كما يفعل الرجال!

- حتى هذه تحبون أن تجردونا منها؟

- أشهر الطباخين في العالم رجال! هل سمعت بامرأة عراقية أصبحت مشهورة عالمياً بفن الطبخ؟

لم أستطع الثبات في عمل واحد. اشتغلت في الكثير من الأعمال، لكنني لا أملك الصبر الذي يجعلني أحرز التقدم. فأتارك عملي إلى آخر، أتوقع أنني سوف أحقق النجاح فيه.

أنا شاعر أملك الشاعرية المثيرة للإعجاب كما يذكر ذلك
الأصدقاء، ولكني لم أستطع أن أكتب غزلاً كما تريد
الحسنات. وحين أتعرف إلى إحداهن، أنظم قصيدة غزل في
حقها، مما يثير نقمة سامية، التي يبدو عليها الغضب، لكنها لا
تصرح... وأنا واثق أن أياً من اللاتي تغزلت بهن لم تحبني
فعلاً وإن تظاهرت أنها تحمل لي عاطفة كبيرة. الوحيدة التي
تراني ملكاً هي ابنتي شهد، وأمها التي لم تعد تعبر لي عن
حبها الذي أدركه رغم أنني أظاهر بنكران الحقيقة.

* * *

تمر بك الأيام وأنت صامدة لا تبدين تذمراً، مهما حصل لك
من ضرر أو تعمد أحدهم أن يسيء إليك. فابتسامتك مرسومة
على وجهك. تعلمت من التجارب التي شهدتها أن الغضب لا
يجدي، وأن التوتر لن ينفعك. ماذا يُفيدك الغضب إن تعمد
شخص ما أن يسبب لك ما لا تحبين؟ فقدان سلامة الروح
وطمأنينتها هو المهم عندك. تفكرين دائماً أن هناك شخصين
يهمك أمرهما، هما شهد وأبوها. يحزنك أن يفهمها ما بدر عنك
خطأ. أما صديقك الوفي الذي عهدت إخلاصه، فكل ما يقوم به
من أعمال وأقوال تجلب السعادة لك. تحققين النجاح المتواصل
في مهنتك التدريسية، وفي أعمالك الفنية. تكونين كالنحلة
المتألقة بين الكواكب، لا تثيرها الأقوال التي تبدر عن أناس
حاقدين أو قليلي الفهم. ليث أحياناً يتهمك أنك لم تحسني فهمه،
وأنت استطعت أن تفهمي هذا المخلوق وتقرئي الدافع لكل
تصرفاته، وكأنه كتاب مقروء. أنت من قام بتربيته، وأنت التي
أحببته وتزوجته. وشهد الحبيبة تتحاز دائماً إلى أبيها. تدركين
أن هذا حال مؤقت، وأن حبيبتك سوف تعرف من أنت،
وتمنحك التقدير الذي تستحقين. لم تطلبي من ليث شيئاً. ما

يستلمه لقاء عمله ملك له، وأنت تقومين بالإنفاق عليه تلبية لما يحتاج. وحاجاته كبيرة، أكبر بكثير من قدرة راتبه على الوفاء بها. أنت معروفة في مجال المهنة والفن، وتحرزين أرباحاً كثيرة. أنت توفرين. تفكرين بما يحمله المستقبل من مفاجآت. وليث يؤمن بالحكمة التي تقول "أصرف ما في الجيب". تتقذين ما يطلب العزيزان منك. شهد وأبوها. هما لا يطلبان إلا النقود وهي عندك. لم تفكري يوماً أن تبخلي عليهما. تقومين بأشغال المنزل لوحدهن. بعض صديقاتك يخبرنك أن أزواجهن يقومون بمساعدتهن في أشغال المنزل، وإعداد بعض الأطعمة التي يجدها أفراد أسرهم لذيذة. لم تطليبي من ليث أن يقوم بإعداد أكلة يفضلها أو تحبها ابنتكما شهد. جاءك يوماً:

- أحب أن أجرب الطبخ.

- مرحباً، أي طبخة نحب أن تجرب؟

- أيها الأسهل!

تخبرينه أي الطبخات تعتبر الأسهل إعداداً لمن لا يعرف كيفية إعداد الطعام. يطلب منك أن تحدد كمية اللحم والرز والبصل والثوم، وكم يضع خضار، وكم تحتاج الأكلة من ملح وفلفل وماء. تحددين له كل المقادير. يعد الأكلة إلى منتصفها ويأتيك قائلاً:

- مللت من الطبخ، أكمل أنت.

- عرفت أنني سأكمل.

- هل تحاولين أن تزعمي أنني لا أجيد الطبخ؟

- لم أقل شيئاً.

- بل قلت.. اعترفي أنني لا أجيد شيئاً وأنني عالة عليك.

- لا أعترف بشيء، ولم أقل أي شيء.

تتعبين لم كل هذا؟ ماذا حدث ليتهمك بكل هذه التهم، وأنت التي تحرص على راحته وسعادته؟

* * *

تسوء علاقتي مع زوجتي بعد زيارة قامت بها إحدى صديقتي لبيتنا. رحبت بها زوجتي ترحيباً جميلاً كما هي عاداتها مع الزائرات اللاتي لا تحبهن، وإنما تقوم بالترحيب بهن إكراماً لي. الصديقة رحاب لا أحمل لها عاطفة مميزة لتجعل زوجتي تغار منها. هي أقل جمالاً من سامية، لكنها أكثر فتنة. تتغنج في الحركات وتقول سامية إن رحاب لا تحسن الكلام، فهي تبلع الحروف ولا تظهرها في النطق، فتأتي الكلمة مبتورة لا يمكن فهمها. بعض الرجال يحبون المرأة المغناج. أنا لا أميل لهذا النوع من النساء. ربما تقدمت رحاب طالبة صداقتي بالفيس بوك إغاضة لزوجتي الجادة، والتي لا تحب المزاح أو الضحك بدون سبب كما تفعل رحاب. المهم أن سامية قامت بواجبها، ودعت الضيفة على الغداء. فجاءت الضيفة وهي ترتدي قناعاً فوق وجهها. قالت سامية وهي تهمس لي في المطبخ:

- ضيفتك وضعت كيلو غرام من الطحين فوق وجهها، وأضحت كالمهرج يستدعي الإشفاق!

أنا ابتسمت ولم أعلق بكلمة أو إشارة تفهم منها زوجتي أنني مستاء من التعليق الساخر.

بقيت رحاب بعد تناول الغداء وشرب الشاي والفاكهة المتنوعة التي جهزت بها سامية طبقاً كبيراً. ثم شربنا القهوة،

ورحاب ما زالت باقية. انسحبت سامية إلى مرسمها، وبقيت رحاب توشوش لي بكلمات مبهمة، لم أفهم ماذا تعني منها. ثم اقتربت مني الزائرة رحاب، وعانقتني بقوة وهي تجثو على ركبتيها. أثارني عملها، فطوقت خصرها النحيف بذراعي وأخذت أقبلها، على الوجنتين أولاً، ثم هبطت إلى الشفتين ثم عرجت على العنق. وأنا أفتح لها حمالة الصدر، أمسك بيدي نهديها المتوثبين. دخلت سامية الغرفة، ولا أدري ماذا أصابني تلك اللحظة. أخذت أصرخ بوجه سامية متوعداً:

- لماذا تفتحين علينا الباب عنوة؟ لماذا لا تستأذنين أولاً؟ ألا تخجلين؟ ألا تعرفين الأصول؟ هل تقبلين أن أفتح عليك المرسم وأنت منشغلة برسم إحدى لوحاتك؟

تضحك رحاب بقوة وخلاعة. تخرج سامية من الغرفة دون أن تنبس بكلمة. استمر أنا في الصراخ:

- فنانة مشهورة ولا تعرف الأصول! ألم يعلمك أبوك كيفية معاملة الضيوف؟ هل كان علي أن أبعد رحاب عني وهي تود تقبيلي؟ هل من الرجولة أن أقوم بهذا الفعل المشين الذي يتنافى مع أبسط القيم والعادات الأصيلة!

تقوم رحاب بالغناء والدق على الدف الذي كانت شهد تتعلم العزف عليه. تطلب مني أن أقوم بشراء علبة سجائر جديدة لها، لأن العلبتين اللتين كانتا معها قد نفذتا.

تطلب مني فنجان قهوة، لا أعرف كيف أقوم بعملها:

- سأطلب من سامية أن تعد لي فنجان قهوة!

- لا، أبي، أُمي مشغولة بمرسمها. سوف أقوم أنا بما تحبان.

تقوم شهد بإعداد فنجانين، واحد لي والثاني لرحاب. نشاهد فيلماً هزلياً في التلفاز. بعد أن تدق ساعة الصلاة اثنتي عشرة

دقة إيداناً بمنتصف الليل، تقوم رحاب طالبة مني أن أوصلها إلى محطة سيارات الأجرة، لتذهب إلى منزلها. أقوم بمصاحبتها في الطريق ويدي مشبوكة بيدها ونحن ندندن بأحلى الأغاني وأشهرها. وشهد معنا، تقوم بتأييد كل عمل أقوم به أو كلام أفتوه به.

* * *

من أين جئت بهذا الصبر؟ وكيف لك أن تتحملي كل هذا الذل؟ أنت في منزلك، تقومين بتقديم كل شيء لحبيبيك الاثنين، واللذين لا تعرفين غيرهما في هذا الوجود. لماذا تتعمد صديقات ليث إغاظتك والخط من شأنك؟ أنت القوية المحترمة في مؤسسة التعليم وفي قاعة الرسم. كيف استباحت زائرات زوجك كرامتك، ومرغنها في الوحل؟ أنت تحبينه وهذا هو الجحيم بعينه! لماذا تتحملين الإهانات من شخص كان يحبك في الماضي، ثم تبدل حبه لك وانقلب إلى عاشق لإحدى صديقاته؟ ومن تكون رحاب هذه؟ وأنت صابرة لا تفعلين شيئاً. تتساءلين إلى متى يطول تحملك لهذه الحالة العسيرة. لماذا زال حب ليث لك؟ ولماذا يفقد المتزوجون حبهم لزوجاتهم؟ وماذا جنيت لتعاقبي بمثل هذه المعاملة؟ أنت في بلاد تساوي بين مواطنيها، ولا تميز بين ذكر وأنثى. لماذا يسيئون معاملتك في منزلك؟ أما كان الأجدر بهم أن يلتقوا بعيداً عنك؟ في صوفيا الكثير من المناطق التي يمكن أن يتلاقى فيها العشاق. لماذا اختاروا لغرامهم بيتك؟ هل لأنك صامتة؟ هل السبب يكمن في طبيعتك؟ وهل فعلها ليث مرات مع صديقاته؟ من يدريك؟ قد يكون فعلها مع رحاب نفسها. من يمكن أن يخبرك؟ أنت الساهية الصامتة عن حقك. وكيف يقوم بهذا العمل الشائن أمام ابنتكما الوحيدة؟ ماذا يمكن لشهد أن تفعل لتقلد أباهما؟ وكيف يكون قدوتها؟ لا

تهمك نفسك، ولا ترين أن ما أقدم عليه ليث خيانة لك. الذي تحرصين على تربيته هي شهد حبيبتك. إنها تقلد كل حركة يقوم بها والدها. ماذا يمكن أن تفعل؟ الخيانة جلية بأقصى صورها. هل تواصلين الصمت؟ هل تقومين بالصراخ؟ وأنت وحيدة هنا. مضى من كان يحرص على سعادتك وهناك. كيف انقلب ليث، وأنت لم تسيئي إليه؟ لا تهملك رحاب وأمثالها. هن كثيرات يخطفن الحب، ويطيبن لهن سرقة الأزواج من بين أحضان الزوجة المخدوعة. هل تواصلين الصبر؟ وأنت في دوامة من التفكير القاسي. تسمعين صوت الباب، فهل نزل ليث يلبي طلباً لرحاب، أم خرج معها ليوصلها إلى المنزل؟ فهي لا يمكن أن تخرج لوحدها في منتصف الليل. قد نسيا أنهما في بلد أوروبي، ويمكن للمرأة أن تخرج في أي وقت تشاء. ولكن لماذا أخذ ليث يصرخ؟ هل ليداري على فعلته، أم ليجبرك على الصمت؟ هل خشي أن تقومي برفع دعوى ضده للسلطات؟ أم أنه استمرراً سكوتك وحملك إهاناته المتواصلة؟ أنت جبانة، رغم رأي الناس بك. توجهين كل الناس للدفاع عن حقوقهم، وتصمتين حين يكون المعتدي فرداً من أفراد أسرته.

وأنت تتأملين الحالة التي وصلت إليها، يفتح باب المنزل بالمفتاح الذي لدى ليث. يدخل زوجك منتفخاً غاضباً وكأنك أنت من وجدها متلبسة بالجرم. هل رآك منهمكة في تقبيل أحدهم؟ لماذا يغضب؟ وهل هذه إحدى المسرحيات التي صار يكتبها ويخرجها ويمثلها في الفترة الأخيرة؟ ماذا يريد منك؟ لماذا لا يكون صريحاً ويخبرك عن قراره وأي إجراء سوف يقوم به؟ وهل سيطلب تطليقه منك؟ وأنتما تعيشان في أوروبا. كيف يكون تصرفه القادم؟ ومن هي رحاب بالنسبة له؟ هل توافقين إن طلب أن تفكي قيده، وأن توافق على إطلاق سراحه كما يحلو له أن يصف علاقتكما في الآونة الأخيرة؟ رحاب لا

تشتغل وهي ليست أوروبية. هل تطلب منه الزواج وهي تعلم أن راتبه لا يكفي لفتح بيت جديد؟ كلهم يعلمون أنك التي تنفق في هذا المنزل، وأنت من يلبي حاجاتهم، ويسرع في تنفيذ ما يطلبون.

لم يفه بكلمة وذهب إلى غرفتكما في بينكم. وعليك أن تحافظي على الهدوء كله وأنت تدخلين الغرفة، خشية أن يستيقظ الملك الذي أصبح طاغية في الفترة الأخيرة، وصار ينتقد كل تصرفاتك، ويستهزئ بكل ما تقومين به من أفعال. وأنت لم تعترضني ولم تستنكري ما يقوم به. أنت تحبين المزاح، إذن واصلي الصبر وتحملني الأذى.

الفصل السابع

أخذت زيارات رحاب لبيتنا تزداد، وسامية ترحب بها كعادتها دائماً. مرة واحدة انتابها الغضب من كثرة زيارات امرأة تبدي الإعجاب واضحاً بشخصي، فبادرتها مستكراً ما أبدته من غضب:

- كيف تدعين أنك تحبينني والغضب يملكك إن أعجبت بي إحداهن؟

- لا، أني أحبك يملؤني الغضب!

- وهل أنا شيء تملكينه أم إنسان له مشاعر يسعى لاحترامها؟

- أني أحبك لأنك إنسان!

- وهل تريدين تقنين عواطفني وحبس مشاعري؟

أرادت سامية أن تدافع عن نفسها وعن حبها لي، فصرخت

بوجهها ألا تشتد حدتها على المعجبات بي. فأنا لا يثيرني ويجعلني نهياً لمشار الحزن والاستياء إن عبر لها الدكتور خليل العبيدي عن حبه لها، وقد أخذ يكثر من التصريح بهذا الحب الذي لم تبالي به سامية، وفضلت على الدكتور خليل شخصي المتواضع. ربما هي لم تحبني حقيقة، وإنما أرادت أن تسيطر على مخلوق مسكين ليس معه أحد يدافع عن حقوقه المسلوبة. ووجد سامية تقف بجانبه وتقدم له الرعاية، حتى اطمأنت نفسه إنها الإنسانية التي فهمته وأحبته وعرفت أن ليث إنسان ممتلئ بالمشاعر الجياشة، ويحتاج إلى أكثر من امرأة واحدة تعبر له عن مشاعرها المتوهجة وقلبها المتعطش للأحضان. وأقول الحق أنني بدأت لا أفهم سامية. لماذا يستولي عليها الغضب إن مدحتني امرأة، أو قبلت وجنتي أو فمي إحدى النساء معبرة عن عواطفها المتأججة؟ سامية لم تعد تعبر لي عن كبير عاطفتها. ربما الأيام أنستها أنني رجل يحتاج إلى سماعه التعبير عن لواعج الحب، أو أن انهماكها بالعمل أفقدها القدرة على النطق. بقيت صامته والنساء الزائرات لبيتنا يتفنن في إظهار عواطفهن الحارة نحوي. سامية لم تلاحظ عواطف النساء الأخريات وهن يدلقنها أمامي. ولاحظت كيف تحتضنني رحاب وتقبلني تعبيراً عن عاطفتها التي أرغمتها وقتاً طويلاً على الصمت. وحين وجدت أنني ضقت ذرعاً بالقيد الذي تحيطني به سامية. أنا أعشق الحرية. سامية مدخولها ممتاز، فلماذا أرهق نفسي بكثرة الأعمال؟ والدنيا مملوءة بالجمال الأخاذ والسحر المستعر؟ لماذا لا ألبى النداء المخبوء في العيون الساحرة، والتي تعبر عن شدة الشوق وتنتظر مني أن أخفف قليلاً من عنف أوارها؟

شهد الحبيبة تقف بجانبني طوال الوقت، وحين تجد العبوس واضحاً على وجه سامية تلومها، قائلة لها:

- أبي لم يرتكب إثماً.. لماذا تلومينه؟

- أنا لم أَلُمُّ أباك!

- جوابك هذا يدل على لومك!

ربما تعلمت شهد مني هذه الكلمات الدالة على التقرُّيع. يلومني بعض الأصحاب كيف أشجع شهد على الوقوف ضد أمها في الحروب الباردة بيننا؟ ناصحين أن أجعلها تتخذ موقف الحياد:

- إن شهد ابنتي!

- وهي ابنة لسامية أيضاً! ألم تحملها في بطنها وتلدّها وتتحمل آلام الولادة القيصرية والرضاعة الطبيعية، والسهر طوال الليل للعناية بالطفلة؟

لا أستمع للنصائح التي أجدها بالية، لا تتلاءم مع روح العصر الذي نعيش فيه. ومكافأة لشهد على وقوفها معي تأييداً، قدمت لها سيجارة:

- صرت كبيرة حبيبتي، دخني هذه السيجارة!

* * *

أصبحت متوترة على الدوام، تزداد زيارة صديقته إلى منزلكم، فيتضخم ألمك. نصحتك صديقتك أمل أن تقومي بما يجب لرد الاعتبار إلى كرامتك المهدورة. ماذا يمكنك أن تفعلي؟ وقد بان الغضب عليك واضحاً. صحيح أنك لم تنفوهي بكلمات خشنة، لم تألفي المواقف والأقوال التي تسيء إلى الناس وتجرحهم:

- لكنهنّ يتعمدن الإساءة إليك.

- سوف أبقى في مرسمي حين تكون صديقائه في زيارته!
- أنتِ تضرين نفسك بهذا الغياب! كيف تقبعين في غرفة الرسم، وهنَّ مع زوجكِ يتمتَعْنَ بحرية وبلا رقيب؟
- لا أعرفُ كيف أتصرف! ليتَّ يقفُ دائماً مع ضيفاته، وشهدُ تؤيِّدُ أباهَا.

- لا تجعلي الغضبَ يفسدُ لكِ يومك، كوني هادئةً وتصرفي بحكمة!

لا تعرفين كيف تحتفظين بهدوئك والنيرانُ تلتهمُ كلَّ شيءٍ.
الزياراتُ تتكرَّرُ، وعليكِ أن تقومي بواجبك بحسن الاستقبال وكرم الضيافة، وإلا فالويلُ لك!

لماذا تحرصين على أن يكونوا راضين عنكِ؟ وهم الذين عهدتهم يظهرون البغضاء لك ولكلِّ نجاحاتكِ. تتألَّمين أن تقومَ شهدٌ بتقليدِ أبيها فيما يفعلُ، واشتدَّ حزنُكِ حين قدَّم لها سيجارةً طالباً أن تدخنها، وهو يعلمُ أن التدخينَ يضرُّ كثيراً. هل لا نه ابتُلِيَ بعادة التدخين يقومُ بحملِ شهدٍ على عادة سيئة تسيءُ إليها؟

- لا تدخني يا حبيبتي، فإن التدخينَ يضرُّ بالصحة!

- أبي يدخنُ، وصحته جيدة!

شهدٌ لا تعرفُ قيمة النصيحة التي تقدمينها. تخشين أن يكون حبُّ التدخين عادةً من العادات التي لا تستطيع التخلص منها، حتى إن أرادت.

تتراكمُ عليكِ الهمومُ، لا يمكنكِ أن تقومي بالردِّ على ليت، هو يتهمك دائماً:

- لماذا تغضبين إن زارتني إحدى صديقاتي؟ والدكتور خليل

يترددُ على منزلنا؟

- الدكتورُ لا يقومُ بتقبيلي!

- وهل أنتِ غيرى منى؟ ومن يدرينى؟ ماذا تفعلانِ حين لا أكونُ موجوداً.. أنا أجدُ أن علاقتي طبيعيةً مع صديقاتي، على العكس تماماً، علاقتك بالدكتور ليست طبيعيةً، هو يحبكِ وأنتِ الآن متزوجةٌ منى!

تدركين أن المناقشةَ مع ليثٍ لن تجدي، ولكن كيف يمكنكِ أن تحافظي على الهدوء؟ والطعناتُ تتوالى عليكِ، غيرَ أبهةٍ بما يصيبُكِ من جراح.

تنصُحكِ الطبيبةُ أن تقومي بالعناية بصحتكِ، ولا تدعي الأحرانَ تسلبُكِ راحةَ النفس. تخبرُكِ الطبيبةُ بمعلومةٍ أنتِ تعرفينها، أن أوجاعَ الروحِ تؤثرُ كثيراً على الجسمِ، وأن الآلامَ التي تعانين منها سوف تظهرُ جليةً في جسدكِ إن تقاعستِ في القضاءِ عليها منذ بداية اندلاعِ الهمومِ في منزلكِ الذي كنتِ تظنّينه سعيداً. ها أنتِ تشهدين تصدعَ البيتِ الذي عملتِ على تثبيتِ أركانهِ وتقويةِ ركانه. تتداعى الأركانُ، وسوف تقعُ على أمِّ رأسكِ. اثبتي واحتفظي بهدوئكِ، وقومي بتمارينَ ضروريةٍ لجعلِ نفسكِ هادئةً، واعلمي على مكافحةِ كلِّ أعراضِ المرضِ التي تهددُ سلامةَ أمكِ الداخلي.

قويتُ علاقتي برحابٍ، أخذتُ تزورني كلَّ يومٍ تقريباً، وقد اقترحتُ عليها أن نلتقي في مكانٍ بعيدٍ عن عيني ساميةَ المترقبتين، لكنها تصرُّ على اللقاءِ أمامَ سمعِ ساميةَ وبصرها:
- زوجتُكِ هذه متكبرةٌ!

- ليست كما تصفين! ولكنها تحبني بصدق!
- ولماذا تحب نساء أخريات ما دمت واثقاً من حبها؟
- أحب أن أجرب فواكه جديدة! سامية جميلة وقوية
الشخصية وموهوبة ومتفانية في عملها ومخلصة لمن يشاركها
الحياة!

- كل هذه الصفات تجدها في سامية؟
- نعم، وأكثر مما قلت!
- وأنا أيضاً أحبك!
- أنت لا تحبينني، إنما تريدان توجيه سهامك إلى امرأة لا
تبلغين شأوها!

لست أدري كيف تمكنت من قول الحقيقة لرحاب؟ وقد بقيت
فترة طويلة ومنذ معرفتي بصديقتي الجديدات أتذكر لسامية
وأغمطها حقها؟

رحاب مصرة على علاقتها بي، ولم أشأ قطع علاقة حب
تختلف عما عشته مع سامية القوية في كل شيء، والمضحية
من أجل بقاء من تحب بسعادة.

أحياناً أتساءل عن الأسباب التي تحدو بي أن أرتبط بعلاقات
عاطفية مع نساء يختلفن عن المرأة التي أحاطتني برعايتها
طوال العمر، وأنقذت حياتي، وجعلت سنين عمري الخاوية من
الفرح والمعنى تزهر. هل لأن سامية لا تسمعي الكلمات التي
تجعلني أفخر بنفسي، وهل في شخصيتي من الصفات ما يخلق
مني إنساناً فخوراً معجباً قد يصل إلى الغرور؟ أصم بعد
تفكير قصير أن أصل في علاقتي مع رحاب إلى مداها. هي
تطلب مني الارتباط بها وتطلب يدّها من أسرتها العراقية

المقيمة في المغرب. وهل أوجه طعنةً نجلاءً إلى قلب سامية الذي أحبني كلَّ الحبِّ وصبرتُ وتحملتُ الحرمانَ من أجلي؟ ومن سوف يخبرُ ساميةً أنني ارتبطتُ بغيرها؟ سوف أسافرُ إلى المغربِ الجميلة، وأخطبُ رحاباً التي تحبُّني بطريقةٍ أخرى تتباينُ مع الطريقةِ التي عهدتها من سامية. ومن يضمنُ لي أن زوجي من رحابٍ سوف يحرمني من علاقاتي المتعددة مع نساءٍ أخريات، أبدين لي إعجابهنَّ الكبير. ساميةُ تعرفُ صديقتي وتقديرهنَّ، تستقبلهنَّ بترحابٍ وتدعوهنَّ على الغداء أو العشاء وتصفني بأعذب الصفات وأجملها أمامهنَّ. سوف أسافرُ إلى المغرب ولا أفشي سري هذا أمام سامية.

أنظم القصائد الوجدانية أحياناً، وأقرأ بعضها أمام مسامع سامية التي تبدي رأيها فيما أكتبُ بصراحةٍ تامة، بينما الأخريات يبالغن في إظهار عظمة قصائدي وجمالها. وأنا التي أشكُّ في قدراتي دائماً، لا أصدق ما تقولهُ صديقتي عن مهاراتي المتعددة ومزاياي.

أخبرتُ ساميةً أنني مدعوٌ إلى أحد المهرجانات الشعرية في بلاد المغرب. رحبتُ ساميةً بالخبر، وتمنّت لي التوفيق. وجهزتُ نفسي للسفر، فحجزتُ على الخطوط الفرنسية للسفر إلى المغرب ذهاباً وإياباً مدة شهرٍ كاملٍ. فكرتُ أن الشهرَ كافٍ للخطبة والزواج.

* * *

رحابٌ ونساءٌ أخريات، يصادقهنَّ ليثٌ، يزرنك في منزلكم، ويبقين وقتاً طويلاً، يتحدثنَّ ويضحكن من أجل الضحك فقط. لم تعرفي كيفية الضحك بلا سبب، تحبين أن تتمتعِي بالابتسام والضحك حين تسمعين ما يدعو إليه. تحبين الاستماع إلى

الطرائف والنكات التي تجعل السامع يضحك طويلاً. ولكن أن تبذري وقتك بالضحك على إنسان تعرفينه، ويتعمد أحدهم الإساءة إليه وتقليده بطريقة كاريكاتورية، لا لشيء وإنما من أجل إظهار عيوب لم يكن للمضحك عليه والمستهزأ به يد في وجودها. يضحون طريقة السير أو طريقة الكلام، والخطأ في لفظ بعض الحروف، ويقومون بتقليد الضحية، والسامعون يثيرهم منظر الممثل في المسرحية، فيقومون بضحك متواصل. لم تكوني ممن يعجب بالاستهزاء بالناس، مهما كان شكلهم. كنت سابقاً تعمدين إلى تبيان أخطاء ما يقع فيه المستهزئ من أشخاص تحبينهم، وحين لم تجدي من يتوافق معك نعتين إياك بأنك معقدة لا تحبين التجديد، ولا تتلاءمين مع مواصفات الحداثة. أخذت تصمتين، إذ لا فائدة ترجى من إسداء النصيحة لأشخاص يحبون السخرية من الناس، وتضخم عيوبهم. تجدين أن كل منا فيه أخطاء كبيرة، ومن الخير أن ينظر المرء في عيوبه الشخصية، ولا يبالغ في إظهار عيوب الآخرين. صمتك أخذ يطول، وهم ينتقدونك لكل شيء.

رحاب لا تتورع في تقليد الناس والمبالغة في إظهار عيوبهم الشكلية، لجعل السامع يضحك بقوة، وليت يجاريها في هذا التصرف، وأنت صامتة لا تميلين إلى الكلام الذي لن يجديك. أخذت رحاب تتعمد أن تسيء إليك، لأنك أحياناً لا تسمعين ما يقوله اثنان موجودان معك في البيت. لا تتعمدين الاستماع إلى ما يقولان، كلامهما ذاك ليس من شأنك. أرادت رحاب يوماً أن تجعل الأشخاص الموجودين يضحكون عليك، لأنك لم تهتمي بما يقولون، فكلامهم لا يعنك. لاحظت ما قاله ليت مدافعاً عنك:

- دعي سامية وشأنها!

أسعدتك هذه الملاحظة التي أتت عفواً، وأدركت أن زوجك لا يمكن أن يذهب مع الكارهين لك ويؤيد مسعاهم للإساءة لك. ولكن الذي يؤلمك أنك لا تستطيعين أن توقفي هذه الزيارات الكثيرة لمنزلك، والتي تسلبك وقتاً ثميناً. كان الأجدر لك أن تستخدميه فيما ينفعك من أمور. تتساءلين لماذا تواصلين استقبال ضيوف لا ترغبين بصادقتهن؟ ولن يكونوا من أصدقائك مهما فعلت؟ إرضاء ليث هو غايتك. يكفيك أنه لم يقل لك أنه يفضل الأخريات عليك. ولكن انشغاله مع رحاب وغيرها يزيد من قلقك. أليس من حقك أن تدافعي عن حبك الذي سوف يسرق منك؟ ترين أنه من واجبك المحافظة على منزلك أن يتهاوى وقد بذلت العمر كله في تقوية أركانه.

يخبرك ليث أنه مسافر إلى المغرب لحضور مهرجان أدبي هناك. تفرحين للخبر، رغم أن ميل ليث إلى قول الشعر قد ظهر مؤخراً. فهل استطاع أن يجد له متلقين ومعجبين في البلدان العربية؟ بحيث تتم دعوته لحضور ملتقى أدبي؟ وهل سوف يلقي إحدى قصائده هناك؟ لا يمكنك أن تحكي على مستوى شعر ليث من الناحية الفنية، فأنت لست ناقدة، ولكنك تحبين قراءة الشعر والاستماع إليه كما تحبين الألحان الجميلة والأصوات المطربة.

في منزل رحاب الكبير، تجتمع أفراد عائلتها الكبيرة. تزينت النساء بالملابس المغربية التقليدية الجميلة، ووضعن الأحزمة اللامعة والأسورة الذهبية. جلس الوالدان كبير السن، يُرجبان بالضيوف. عرفتني رحاب على أفراد أسرتهما: الوالد والوالدة والأخوة والأخوات، وأزواج الأخوات. كلهم دعتهن الأسرة

الكريمةُ إلى حضورِ حفلةِ الخطبةِ. رأيتُ رحاباً وقد ارتدتْ أجملَ ما عندها، فبدتْ مثلَ البدرِ جمالاً وفتنةً. لم أحضرِ الهدايا الجميلةَ كما نصحتني رحابُ، التي جهّزتْ كلَّ ما يلزمُ كي يبدوَ الخاطبُ كريماً متفهّماً حريصاً على المحافظةِ على الشرائعِ العربيةِ. قدّمتِ الحلوياتِ والمعجناتِ المغربيةِ اللذيذةَ مع الشاي الأخضرِ:

- جئتُكم أنا العراقيُّ القادمُ من بلغاريا لأخطبَ كريمتكم!
- مرحباً بابنِ وطننا الحبيب!

قدّمتُ لنا التهاني والتبريكاتِ بهذه المناسبةِ السعيدةِ. وحينَ تناولنا طعامَ العشاءِ وأكلنا أنواعاً من الفواكهِ التي صُنّفتْ بعنايةٍ وجمالٍ في طبقٍ كبيرٍ، وغادرَ الضيوفُ إلى منازلهم، أخبرني والدُ رحابِ:

- سمعتُ أنكِ متزوّجٌ من رسامةٍ مشهورةٍ؟
- نعم، أنا متزوّجٌ.
- وكيف يمكنُ أن تتزوّجَ من ابنتي على زوجتكِ؟
-

- هل يبيحُ القانونُ الأوروبيُّ لكِ أن تُطْلِقَ زوجتكِ إن رفضتْ هي تطليقك؟

- لا أظنُّ أنها ترفضُ!
- وإن رفضتْ؟ سمعتُ إنها تحبُّك حبّاً جمّاً!
- ولهذا سوف توافقُ على طلبي للطلاق!
- وكيف أضمنُ حقوقَ ابنتي؟
- ماذا تريدونَ لضمانِ حقوقِ ابنتكم؟

- منزلٌ هنا في الدار البيضاء وسيارة! هل يمكن أن توفر لرحاب هذه الأشياء؟
- ممكنٌ.

فكّرتُ كيف أوفرُ هذه الأمورَ، وأنا لا أملكُ حساباً بالمصرفِ، وراتبي ليس كبيراً، ولم أكنُ من محبي العملِ الثابتِ. فأنا ملولٌ، سرعانَ ما يصيبني المللُ من العملِ إن طال مكوثي فيه، فأسعى لتبديله إلى عملٍ آخرٍ أجده أكثرَ إغراءً.

إنهم يريدونَ أن يحافظوا على حقوقِ ابنتهم قبلَ أن يعرفوا موقفَ ساميةَ من طلبي الطلاقَ منها. إن قبلتُ زوجتي تطليقها، فلماذا أحقّقُ لرحابِ هذه الأمورِ الماليةِ وهي ستكونُ زوجتي الوحيدة؟

وافقتُ على طلباتهم، وفرّحَ والدُ رحابٍ بموافقتي:

- سنحدّدُ تاريخَ كتابِ الكتابِ، يومَ الخميسِ القادمِ.

سمعتُ ما قاله السيدُ الوالدُ وفقدتُ حماستي لكلِّ شيءٍ. زواجي من امرأةٍ أخرى وتطليقي لساميةَ، والإبقاء على زواجي منها، أصبحتُ بلا رغبةٍ من كلّ شيءٍ، ولم يعدْ أيُّ شيءٍ يثيرُ عندي استجابةً أو حماساً.

يسافرُ ليثٌ لحضورِ المهرجانِ الأدبيِّ، وتشتاقينَ إلى وجودِهِ معكِ، رغمَ كلّ النزاعاتِ بينكما. فأنتِ لا تستطيعينَ فراقَهُ. كثرتُ خلافاتكما في الآونة الأخيرة، وفوجئتُ أنّه يبدو مرحباً بالخلافِ، متلهّفاً لتعزيزِهِ بما يقولُ من كلماتٍ حادةٍ لم تكوني تتوقعينها. لماذا سافرَ لوحده لحضورِ المهرجانِ الشعريِّ هناك؟ أما كانَ الأجدرُ به أن يدعوكَ لمرافقتهِ والسفرِ معه؟ يخبرُكَ

الأصدقاء أن المغرب بلدٌ ساحرُ الجمال، يأتيه السياحُ من مختلفِ العالم، استمتعاً بجوِّه اللطيفِ وبحريِّه الرائعين، وأرضيه الخضراء، وأناسه الطيبين. نساؤهم هناك يتمتعن بحقوقٍ لا تتوفرُ للمرأةِ العراقية. ولكنه سارعَ بالسفر، ولم يعرضَ عليكِ مرافقته، وكأنَّه كانَ يخشى أن توافقي على اقتراحه. لم يكنْ ليثٌ يحبُّ السفرَ لوحده قبلَ ارتباطكما بعقدِ الزواج. كانَ يرحبُ أن تكونا معاً في السفرِ وفي العودة. أهكذا يتغيَّرُ الرجالُ، وينقلبونَ إلى نقيضِ ما كانوا عليه قبلَ الزواج؟ يدهشُك الانقلابُ الكبيرُ الذي حدثَ بسلوكِ ليثٍ وتصرفاته معكِ. تظنَّينَ أنكِ بقيتِ محافظةً على صفاتكِ، التي عرفها الناسُ عنكِ، ولم تحدثْ فيكِ الأيامُ تبدلاً. ولكن هل يمكنُ لإنسانٍ ألا يتغيَّرَ مع مرورِ الأيام، وتغيَّرَ كلُّ شيءٍ؟ فالحياةُ تتغيَّرُ، وما كنا نحبُّه، نجدُ أنفسنا وقد فقدنا حبَّنا له. لسنا جامدين. فهل أحسنَ ليثٌ في تغيِّره، ولم يجدكِ تحسنيينَ التطورَ، فذهبَ إلى مصادقةِ نساءٍ أخريات؟ لن تسألي عن الأسبابِ. من حقِّ كلِّ امرئٍ أن يصادقَ من يشاء. ولكن ما دمتما ارتبطتما برباطِ الزواجِ المتينِ، على كلِّ منكما أن يحترمَ الآخرَ. وجدتِ ليثاً يبدي تقديرًا لكِ أمامَ من يحبُّ النيلَ منك. أكبرتِ عملَهُ ذاكَ. لماذا تغضبينَ ويثيرُك أن تزورهُ صديقاتٌ عديداتٌ في منزلكما، وأنتِ تقرِّينَ بحقه باكتسابِ الصداقاتِ المختلفةِ مع من يحبُّ ويرتضي؟ أنتِ لم تتعرفي إلى أصدقاءِ جددٍ بقيتِ قائمةُ أصدقائكِ كما هي، طيلةَ السنواتِ الخمسِ الماضية. لماذا لا ترضي نفسكِ بأن يكونَ لزوجكِ صداقاتٌ جديدةٌ مع الجنسين؟ ولكنكِ وجدتِ أنَّ النساءَ فقط يزرنَ ليثاً في المنزلِ. لم يزُرهُ أحدُ أصدقائه الرجالِ. هل خلتِ قائمةُ أصدقائه من الرجالِ؟ تفكرينَ أن هذا مستحيلٌ، ولكنكِ تتساءلينَ:

- لماذا لم يدعِ ليثٌ أصدقاءَهُ الرجالَ لزيارتهِ في المنزلِ؟

يتعجبك أن تجدي الجواب المناسب لتساؤلِكَ الغريب. كنت
تظنين أن جميع أصدقائك ارتاح لهم ليثّ وجعلهم أصدقاء له
أيضاً. وفوجئت حين اشتدت مناقشتكما حول زيارة الصديقات،
أن ليثاً يغار من الدكتور خليل العبيدي. فطنت إلى هذه الحقيقة
مؤخراً. والدكتور خليل صديقك المقرب، الذي يبدي لك
الاحترام والتقدير، ولم يكن في تصرفاته معك ما يدعو ليثاً إلى
الغيرة.

تؤجلين مناقشة الأمور التي تسبب حيرتك إلى وقت آخر،
ربما تهتدين إلى جواب يضع حداً لقلقك المتفاقم. أنتِ ترحبين
بصديقات ليث حين يزرنه في منزلكما، لكنك لست مرتاحة أن
تجديه مع إحدى صديقاته في مكان بعيد عن عينيك المترقبتين.
لماذا تقوم الصديقات بتقبيله في أماكن لا يمكن للصديقة البريئة
أن تقدم عليها؟ وهذا يفاقم من حيرتك ويزيد من خشيتك.

* * *

واصلت مراسيم الزواج رغم شعوري بالإحباط. دفعت
للعروس ما أرادت مني، كي أوفر لها العيش الرغيد الآمن.
اشتريت المنزل بالتقسيط كما ابتعت السيارة التي استهوت
زوجتي. استعنت بما لدى سامية من حساب بالمصرف، فقد
أمنتني على أموالها، وجعلتني مطلق الحرية في أن أتصرف
كيف أشاء في حساباتها البنكية التي كنت مشاركاً لها. أسحب
المقدار الذي أريد به، دون أن توجه لي سؤالاً عن مال
الثروة الكبيرة التي سحبتها. عقدنا لدى الفقيه أولاً، ثم ذهبنا إلى
المحكمة لعقد الفران المدني. ذهبنا إلى منزلنا، الذي سجلته
باسم رحاب، ودعونا الأصدقاء والصديقات لحفل الزواج، الذي
كان بهيجاً، يغمره الفرح وتملؤه البهجة. هنأني الجميع بزوجتي

الجميلة، كما قدّموا التهاني والتبريكات لرحاب التي وجدت إنساناً تثق به، وتسلم له نفسها، وهي مطمئنة أنه لن يخون ثقّتها. حضر جميع معارف رحاب الحفل، وأنا لم يكن لي أحدٌ إلا بعض الأصدقاء الذين كنتُ أعرفهم على مواقع التواصل الاجتماعيّ. تناول المدعوون العشاء، وشكرونا على الضيافة متمنين لنا الرفاه والبنين. تنفّستُ الصعداء حين غادر الجميع، فقد تعبْتُ من الوقوف طوال النهار. ارتأيتُ أن نرتاح قليلاً قبل أن نشرع في الدخول. إنها عمليةٌ صعبةٌ، لم أجربها سابقاً، فقد كانت زوجتي الأولى ثيباً. تناولتُ كأساً من النبيذ ليريح نفسي المرهقة وجسدي المتعب. صيبتُ كأساً من البيرة لرحاب، فاعتذرت:

- عفوا، لا أشربُ.

- وماذا أقدم لك؟

- سيجارة!

قدّمتُ لها علبة سجائر، أخذتُ واحدةً، أشعلتها لها. أخذتُ تدخنها بنهم، يدلُّ على أنها ماهرةٌ في التدخين. فتحتُ جهازَ التلفاز لنستمع إلى أغاني أمّ كلثوم، التي تبعثُ النشوة إلى النفوس المتعبة، فتزيل عنها التعب والإرهاق. أعطتني رحابُ منديلاً أبيض اللون، لم أعرف في البداية ماذا أصنع به، ثم أدركتُ أنه يُفرش تحت العروس، للتأكد من بكاريتها. العربُ كلُّهم والمسلمون يطلبون براءة المرأة من الدنس، وأنها لم ترتكب معها الخطيئة. أخبرني أصدقائي العراقيون أن الكثير من الجرائم ترتكب، والدماء الزكية تسيل، بسبب أن فضّ غشاء البكارة لم يخرج منه دمٌ. فالشرف والرفعة معقودان بين ساقَي النساء، اللاتي يحفظن شرف الأسر ويدافعن عن عافيتها. كلُّ الذي قمتُ به للتخفيف من الملل، الذي أخذَ يحيطُني

بذراعيه، لم يجدني نفعاً. فشعورٌ بالإحباط يستبدُّ بي، ويجعلني أحسُّ أنني أقومُ بخطأٍ في زمانٍ ومكانٍ ليسا بالصححين. قبلتُ رحاباً قبلَةً طويلةً، لم أدعها تشعرُ أنها خاليةٌ من المشاعرِ الجياشةِ التي كنتُ أحملها قبلَ عقدِ القران. واستجمعتُ إرادتي المشلولَةَ كي أمضيَ ليلتي هذهِ إلى النهايةِ المرجوة. بردتُ رغبتِي في كلِّ شيءٍ. لم أشأُ أن أستمرَّ في مهزلةِ زواجي الجديد. لم أعرفُ لماذا أقدمتُ على هذا الارتباطِ وعندي كلُّ شيءٍ. حاولتُ أن أخففَ ما بي من برودةٍ بالقبلاتِ، فلم تطاو عني شفتاي. شعرتُ بهما جلدًا يابساً ميتاً. عقلي أرادَ أن ينهيَ كلَّ شيءٍ ويتخلصَ من الأمرِ الذي أوقعني فيه هوائي. ولا أدري هل أنَّ عدمَ الرغبةِ بالاقترانِ انتقلتُ من رحابِ إليّ؟ حاولتُ النهوضَ وبأنَّ الترددُ واضحاً:

- لنؤجلُ هذه المهمةَ إلى وقتٍ آخر!

- كما تشاء، ولكنك قد جرَّبتَ هذا من قبل!

- لا أدري ماذا أصابني؟ ربما التعبُ والإرهاقُ.

أقومُ وأنا أنوي ألا أكرّرَ هذه الفعلةَ مرةً ثانيةً. لتذهبِ النقودُ التي دفعْتُها إلى الجحيم، ولأكسبَ كرامتي التي أهدرتها حينَ رغبتُ بمن لا يريدني لذاتي، وإنما لكسبِ سيارةٍ ومنزلٍ حديثٍ. ماذا جنيتُ بيدي؟ ولماذا جرَّبتُ الهاتفَ خلفَ من لا يرغبُ في محبتي؟ سوف أنتظرُ أن ينبثقَ الفجرُ، وأرحلُ.

أيامٌ قليلةٌ مضتُ على فراقكِ ليثاً، والشوقُ يستبدُّ بك. ماذا تفعلينَ إن كانتِ حياتُكما تجري على ما يرام؟ خصوماتُكما كثرتُ في الآونةِ الأخيرة، ولم تعرفي سببَ الخصامِ. كلُّ ما

تعرفينه، أنك كنت حريصةً على التعبير عن رأيك بصراحة. علموك وأنت طفلةً صغيرةً ألا تترددي في إبداء رأيك الذي تربيته صائباً، مهما كانت النتائج. تذكرين قول والدك:

- لا تسكتي عن إبداء رأيك يا ابنتي!

- وإن كان رأيي لا يعجب أحداً ممن أحبهم!

- تعلّمي أن تذكرتي رأيك بليين وهدوء. لا أحد ممن تحرصين على صداقتهم سوف يخاصمك. إن الاختلاف في الرأي يا حبيبتي لا يفسد الوداً!

تتذكرين نصائح والدك الحنون الذي تميّز بالحكمة، وتدافعين عن صحة رأيك. ليت أنت تعرفينه جيداً، كان يحترم ما تقولينه، ويقدر أفعالك، ولم يقف ضدك مجادلاً معترضاً. أصابك العجب لموقفه الذي بدا غريباً. أنت الحنونة والمخلصة له، كيف طوعه قلبه أن يقف ضدك في مناقشاتكما، حتى إنه بدأ يؤيد الأغراب، ويقف مع كل زائرة لمنزلكما تريد الانتقاص منك!

تشتاقين لوجوده معك رغم كل ما حدث. حياتك زاخرة بالعمل، مليئة بالنجاحات. تكتب عن لوحاتك الصحف والمجلات بإعجاب، ويشيد النقاد الفنيون برسوماتك المعبرة عن قضايا الإنسان المعاصر، وتوقه إلى الانعتاق من كل أنواع القيود. ليت كان يفرح لنجاحاتك، ويهديك التهاني إن توصّلت إلى تحقيق ما تصبو إليه نفسك من جمال فني وإبداع في مضمار الرسم. لاحظت أنه أخذ يقلل من أهمية النجاح الذي تحرزينه. لماذا تبدل ليت بهذا الشكل المفاجئ؟ وهل أذنبت أنت بحقه؟ وهل قلت كلمة أثارت استنكاره؟ أنت دقيقة جداً فيما تقولينه، تفكرين عشرات المرات قبل أن توجهي نقداً للآخر، وخاصة من كنت تحبينه. وقد عاش ليت وهو يتمتع بحمايتك

وتدليلك. فما الذي جرى وأدى إلى تغييره؟ وهذا التغيير يؤلمك. سافر إلى خارج أوروبا دون أن تعرفي السبب، وشاعريته التي دعتك في المغرب يوجهونك له الدعوة لحضور مهرجان شعري. كنت تفرحين بها كثيراً إن شاركه السفر. ليت يصبحك في كل سفرياتك. تخبرينه إن قررت السفر إلى إحدى البلدان، وإقامة معرض لك هناك. الفرخ يظهر على وجهك وكل قسماتك حين يشاركك ليت السفر إلى أي بلد تذهبين إليه. لم يحدث مرة أن توجهت إلى أحد البلدان وحدك. حتى الدكتور خليل الذي كان يحرص على السفر معك لحضور معارضك، لم تفرحي لصحبته لك كما تفرحين إن شاركك ليت. وأنت تعرفين كم يحبك الدكتور خليل، وحدتك عدداً من المرات عن حبه الكبير لك. ليت لم يحدثك عن حبه، بل قرأت ذلك الحب على ملامح وجهه وفي نبرات صوته. فكيف فقدت حبه الكبير؟ ولماذا انقلب عليك؟ لمن توجهين سؤالك الحائر هذا؟ ومن يمكن أن يعرف الإجابة؟ الذي تدركينه أنك تشواقين إلى ليت رغم الخصومات التي جرت بينكما. كان يصرخ حين تبدين رأياً قد يختلف قليلاً عن رأيه. ولقد ظننت أنه يبدي آراءه التي يعرف أنها مخالفة لما تعتقدين بصحته... لم يتصل بك، ولم يسألك عن الأحوال. شهد تتصل به يومياً، وهو يهاتفها مستفسراً عن أحوالها، وكيف بدت حياتها أثناء غيابها، وهي المتعلقة بأبيها كثيراً.

رحاب لا تحب شيئاً. كل الأشياء التي لا أستغني عنها، أجد رحاباً لا تحمل اهتماماً نحوها. اعتدت مع سامية أن أستمع إلى الألبان العذبة صباح كل يوم وفي المساءات. سامية لا تدخل مرسومها إلا حين تكون الموسيقى صادحة بأجمل الأنغام. وحين

تتهمك بإعدادِ أحدِ أنواعِ الأطعمةِ، يكونُ النغمُ الجميلُ رفيقَها. تصيُّبُها التوترُ إنْ لم تصبحْ على إحدى أغنياتِ فيروزَ، وتصيُّبُها السَّامةُ إنْ ودَّعتْ نهارَها وذهبتْ إلى سريرِها، والغرفةُ تخلو من الأصواتِ التي تصاحبُها في ليلِتها، فتدعو الأحلامَ السعيدةَ إلى زيارِتها في ليلِتها. فتغزو الليلةَ جميلةً حافلةً بالبهجة. ساميةٌ إنْ استيقظتْ كانتِ البسمةُ تعلو وجهَها، وكلُّ جسديها كانَ مرحباً باليومِ الجديدِ وقدْ أهَّلَ على العالمِ، فتسعدُ به النفسُ. العاداتُ الجميلةُ التي كانَ الجدُّ يقومُ بها كلَّ صباحٍ، فتجلبُ الطمأنينةَ إلى النفسِ المجهدةِ، كانتِ ساميةٌ تقومُ بها. أصبحتْ عادةً جميلةً. لا تعرفُ ساميةُ البقاءَ في سريرِها إنْ زارَها الفجرُ بنورهِ الفضيِّ، ولا تنتظرُ حتى تأتِيها أشعةُ الشمسِ الحانيةِ التي تشرعُ في بعثِ الدفءِ إلى النفوسِ المكدودةِ التي أتعَبَها العملُ بلا أملٍ. تقومُ ساميةٌ بأداءِ التمارينِ الرياضيةِ بعدَ أن تضعَ إبريقَ الشايِ على النارِ ليغلي، فتضيفُ عليه بعضَ أوراقِ الشايِ. وحينَ تنتهي من تمارينِ الصباحِ، وتجهزُ المائدةَ بما سوفَ يكونُ طعامُ الإفطارِ، تفتحُ المذياعَ للاستماعِ إلى آخرِ الأخبارِ. والألحانُ الهادئةُ تكونُ بصحبِتها دائماً. تستمعُ إلى تغريدِ العندليبِ وغناءِ البلابلِ، ويكونُ يومُها زاخراً بالسعادةِ. وحينَ يقبلُ الليلُ ويهيمنُ قمرُهُ المضيءُ على البشريةِ، فينيرُ حياتهم، ويجعلُ لياليهم مليئةً بالدفءِ والجمالِ. ساميةٌ إنْ تهيأتْ للنومِ تعطرتْ وارتدتْ أجملَ ملابسِ نومِها.

لم ألاحظْ كلَّ هذه العاداتِ الفاتنةِ لدى رحابِ، التي لا أعرفُ كيفَ يمكنُ أن تحبَّ المرأةُ رجلاً إنْ هيَ لم تعرفْ جمالَ الألحانِ. وكيفَ تتوقُّ أنوثَها إلى أحضانِ الرجولةِ، إنْ هيَ لم تسعَ إلى طلبِ الجمالِ في كلِّ مكانٍ يمكنُ أن يوجدَ فيه. وردتني هذه المقارنةُ بينِ المرأتينِ دونَ قصدٍ مني. وساءلتُ نفسي: ما الذي كانتْ تطلبُهُ فوقَ ما كانَ من نصيبِها؟ وهل

المرء يكون بهذا الطمع إن وجدَ أحداً ميالاً لتحقيق مطالبه، مهما بلغت من الضخامة؟ فهل كانت السعادة تنقصني، أم أن سامية قد قامت بتدليلي فوق ما يحتاج المخلوق ليت إلى التدليل؟ تتصل بي شهيداً فأوصيها بأمرها، وأن تحسن معاملتها، فهي من الرقة لا يمكن أن تتحمل جحود من أحببتهم وقامت بالتضحيات الجسام من أجلهم.

هل من أطلق القول المأثور: "لا تعرف أهمية إنسان إلا بعد أن تجرب غيره" قد عانى مثلي في التكرار لمن أكرمه؟ سوف لن أظل سلبياً وأنا أجد راحتي تتعرض للانهدام بيدي وموقفي وإرادتي.. لأول مرة أنصح شهيداً بأن تحسن معاملتها، وأنا جاد. أصدقائي كلهم كانوا يصفون سامية بالأُم المثالية. تردّ سهام المرض عن ابنتها وعني أيضاً. وكثيراً ما سهرت الليالي لتدرك المرض عنا، وأثرتنا على نفسها.

* * *

شعورك بالإرهاق تستطيعين التخفيف منه بعد أدائك لبعض التمارين الرياضية. لماذا جعلت التوتر يستبد بك، ويسلبك راحة اليقين؟ ماذا يجري إن سافر ليت زيارة بعض أصدقائه في المغرب، ولحضور مهرجان شعري؟ أنت تحبين سعادته، فلتسعي نفسك بسفره المفاجئ. لقد زرت بلداناً كثيرة، وعرضت لوحاتك في معارض البلدان التي قمت بزيارتها. المغرب أنت تحبينها، ناسها كرام يرحبون بالضيوف. كانت رحلتك إليهم قصيرة في العام الماضي، وصحبك ليت ككل الرحلات التي تقومين بها. قررت أن تعودي إلى زيارة الأرض الخضراء الزاهية، ذات المناظر الخلابة. تنفسي بهدوء وعمق، ولا تدعي الهموم تسيطر عليك. قضيت أياماً وأنت

نهبٌ لمشاعرِ الخوفِ. هل رحلةٌ لأيامٍ قليلةٍ قامَ بها ليتُ يمكنُ أن تجعلَكَ مرعوبةً بهذا الشكلِ الغريبِ؟ ماذا يمكنُ أن يجري؟ هدئي نفسكِ وارتاحي، وعبري عن مخاوفِكَ في لوحةٍ جديدةٍ، تنالين بها إعجابَ المتلقّي، وتضيفين نصراً جديداً إلى رصيدِكَ الكبير. فَنُكَ وإعجابُ الناسِ بهِ، جديران بأن تحافظي عليهما، بأن تولي صحتَكَ عنايتَكَ واهتمامَكَ. لقد نشأتُ لدى أسرةٍ كريمةٍ، علمتُكِ كيفَ تضبطين نفسكِ، وتملكين غضبكِ، وتحافظين على سكينتِكَ. إن وجدتِ أنَّ الهدوءَ صعبٌ في وقتٍ من الأوقاتِ، فبعضُ التمارينِ كفيلةٌ بجلبِ الراحةِ التي أوشكتِ أن تغادرِكَ في الأيامِ الماضيةِ. تفرحين كثيراً حين يتصلُ بكِ ليتُ، ويخبرَكَ أنَّه مشتاقٌ إليك. كما أنَّ شَهْدَ الحبيبةِ أخذتِ تهتمُّ بكِ، وتراعي مشاعرَكَ، وكانتِ قبلَ أيامٍ لا تبالي. حبُّ ليتُ وشهدٌ وتقديرُهُما يعتبرانِ أغلى ما في هذه الدنيا. سوفَ تبدعينِ في رسوماتِكَ، وترسمين لوحاتٍ جديدةٍ تعبرُ عن نصركِ. كسبتِ معركتَكَ مع الشاكِّ ونقصانِ الثقةِ. عادتِ إليك ثقتُكَ بنفسِكَ التي كنتِ تعهدينها. افرحي وكوني بخيرٍ. زوبعةٌ مرّت بحياتِكَ وكادتِ أن تقلعَ سعادتكِ، لكنك بالهدوءِ استطعتِ أن تتغلبِ على مَنْ كانَ يرغبُ بإيذائِكَ. أخبرَكَ ليتُ أنَّه عائِدٌ إليك، واستعدتِ شَهْدٌ لتجعلَ عودةَ أبيها سعيدةً. اقترحتِ إعدادَ بعضِ الأكلاتِ التي تعرفُ أن أباهُ يفضلُها. طلبتِ منكِ أن ترتاحي:

- أمي الحبيبةُ، سوفَ أهيئُ ما يحبُّ أبي من ألوانِ الطعامِ!

- وهل أساعدُكِ حبيبتي؟

- سوفَ أساعدُكِ أنا اليومَ بعدَ أن قدمتِ لنا ما نحبُّ طيلةَ العمرِ!

يا لهذا الكلامِ الجميلِ! أنتِ سعيدةٌ، عادتِ إليكِ شَهْدٌ بحبِّها، وسيعودُ ليتُ أيضاً.

صدر للكاتبة

المجموعات القصصية:

1. التمثال، (1976)
2. امرأة سينة السمعة، (2005)
3. لائحة الاتهام تطول، (2007)
4. التابوت، (2008)
5. لست أنت، (2012)
6. غسل العار، (2017)

الروايات:

1. العرس، (2010)
2. فاقة تتعاطم وشعور يندثر، (2014)
3. أرواح ظامنة للحب، (2015)
4. هموم تتناسل... وبدائل في شهر 10، (2015)
5. وأدتك قلبي، (2017)
6. راحلون رغماً عن أنوفهم، (2018)